

السنة الثالثة العدد ٣٠ يناير ٢٠٢٠

كلمة حق

أوراق أفغانستانية..التاريخ السري للحرب

في حرب مع الحقيقة (٢/١)

ترجمة : حامد عبدالعظيم

"النازية الهندية" في عهد مودي (٢/١)

ترجمة : أسامة خالد

تلك العتمة الباهرة

أحمد حمدان

مذكرات رفاعي طه (٢٢)

محمد إلهامي

وغيرها من المقالات ..

محتويات العدد ٣٠

يناير ٢٠٢٠



المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
حامد عبدالعظيم


ترحب مجلة كَلِمَةُ حَقّ
باستقبال مقالات القراء ،
إذ تعمـل هيئـة التحـرير علـى فـرزها
ونشر المتميز منها في كل عدد جديد ،
يُرجى إرسال المقالات على البريد التالي
Klmtuhaq@gmail.com
كَلِمَةُ حَقّ
klmtuhaq

الافتتاحية ..

خطر الاستهانة بالمعارك

محمد إلهامي



في مؤتمر علمي شاركت فيه في إسطنبول، لاحظت غياب الترجمة، رغم أن الأوراق العلمية التي يحتويها المؤتمر باللغات الثلاث : العربية والإنجليزية والتركية، وفي مثل هذه المؤتمرات لا بد من وجود الترجمة بطبيعة الحال. سألتُ عن سر هذا فعلمتُ أن بلدية اسطنبول امتنعت عن تمويل المؤتمر من بعد ما أبرم الاتفاق بينها وبين الجامعة أو أنها قَلَّصَت التمويل المتفق عليه كثيراً، فأثَّر هذا على كل شيء، على عدد المدعوين من خارج تركيا، وعلى اتساع المكان، وعلى التجهيزات، إلا أن أغلب هذا لم ينتبه له المشاركون -إذ هم لا يعرفون الوضع الذي كان منشوداً ثم تقلص- وإنما كانت مسألة الترجمة لضرورتها هي ما أثارت الانتباه.

تغير الوضع في إسطنبول منذ فاز برئاسة البلدية الكبرى مرشح حزب الشعب الجمهوري، وصارت البلدية تمول فعاليات أخرى، منها حفلات راقصة في مناسبات علمانية، وفي المقابل تقلص أو انتهى التمويل الذي كان يذهب للفعاليات العلمية خصوصاً الإسلامية والعثمانية، واتسع نشاط التضييق على اللاجئين والمهاجرين في تركيا وإغلاق منشآتهم الاقتصادية والتجارية وشروط إقامتهم وتنقلاتهم، وغير ذلك مما بعضه معروف وأكثره لا يعرف!

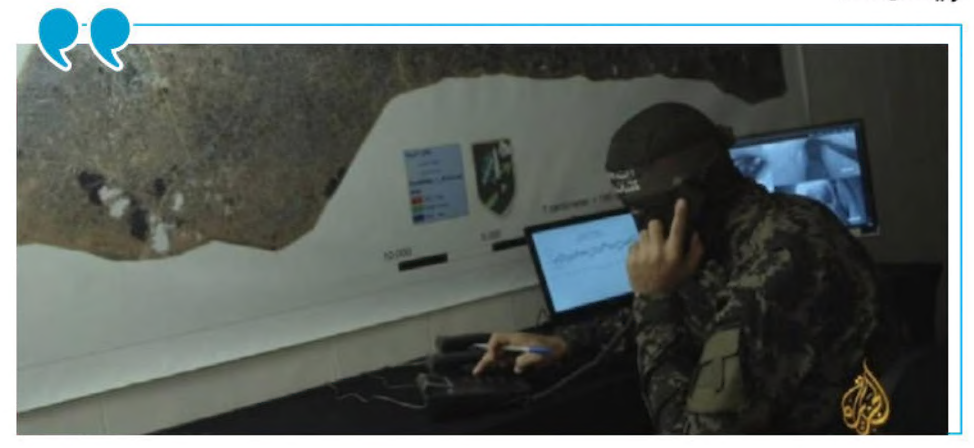
تذكرت في هذه اللحظة منشور شيخ معمم لاجئ في تركيا، كتب عند لحظة فوز مرشح الحزب الجمهوري، ينعي على المنفعلين حزنهم وحماستهم، مؤكداً أنها مجرد جولة انتخابية كغيرها، ولن ينهدّ الكون.. هكذا ظنَّ نفسه عقلانياً ناضجاً واعياً مفارقاً لعاطفة العامة والغوغاء.

وتذكرت معها أيام الانقلاب العسكري في مصر، حيث كانت شريحة من أولئك الناضجين الواعين الحكماء يرون أن المسألة مجرد صراع سياسي، ونزاع على الكراسي، فلا فوز مرسي مكسب عظيم ولا انقلاب السيسي خطر داهم. وكنا حين نحذر من خطورة هذا وكارثيته ينظرون إلينا كما ينظرون إلى المجنون المهووس المتعصب المنغلق المتشائم!

والآن جميع الناس يرون إلى أين صارت مصر وأحوالها، وكيف كان انقلاب العسكر فيها نكبة وطعنة للأمة كلها لا لمصر وحدها، وليست النكبة نكبةً سياسية أو عسكرية، بل أخطر منها ما جرَّته من النكبة الدينية والاجتماعية، وهذه الموجة الهائلة من الإلحاد والإباحية وضياع الدين ونشأة جيل جاهل بمبادئ الدين متحلل من مبادئ الأخلاق.

إن المعارك التي تجري في بلادنا، ليست مجرد نزاعات دنيوية محدودة، بل تكاد كلها أن تكون ذات ارتباط وثيق بالدين والهوية.. هذا ما يجب أن نعلمه جيداً ونستوعبه جداً ونهضمه تماماً! إنها معاركُ يكون النصر فيها فتحا والهزيمة فيها نكبة، النصر فيها سبيل إلى الإيمان والهزيمة فيها باب إلى

الكفر.. بما في ذلك المعارك الانتخابية، فبها تنفق أموال الأمة ومواردها في صالح الأمة أو ضد مصالحها، وبها يُفسح للإسلام ويُمَكَّن له أو يُفسَح للكفر ويُمَكَّن له.



وفي زمن الاستضعاف العام الذي نحن فيه، فإن كل نصر وكل فتح هو إنقاذ لملايين المسلمين، مثلما أن كل هزيمة وكل نكبة هي إهلاك لملايين المسلمين، فأثر النصر في زماننا وحالنا مُضَاعَف، كما أن أثر الهزيمة في زماننا مُضاعَف!

وانظر وتأمل وقارن بنفسك وانظر في أحوال المسلمين ترى هذا واضحاً..

فخلال الشهر الماضي أفرج الجهاز الأمني لحماس في غزة عن عمليات أمنية معقدة نفذها بكفاءة، حتى أسقط -وكاد يأسر- مجموعة من نخبة النخبة الإسرائيلية التي دخلت في مهمة متقنة محسوبة لزرع أجهزة تتمكن بها من اختراق شبكة الاتصالات الخاصة بالمقاومة. لقد فشلت محاولات إسرائيل السابقة من خلال العملاء في هذه المهمة حتى لم يعد أمامها إلا أن تلقي بنخبة النخبة من عناصرها في موضع الخطر، ثم لم ينجحوا، وكانت إسرائيل من قبل هذا مرتاحة البال هانئة، ويتولى هذه المهمات نيابة عنها سلطة فتح وعناصرها الأمنية، ففي ظل سيطرة فتح كان إنشاء شبكة اتصالات خاصة بالمقاومة شيئًا فوق الخيال والتصور، بل كان الرجل من أبناء المقاومة يخشى على نفسه الاعتقال والتعذيب فتؤخذ منه كل المعلومات وأدقها عن كل ما يعرف ثم تُعطى في تقرير وافٍ لإسرائيل!

وخلال هذا الشهر الماضي نفسه تطورت الأحوال في ليبيا كثيراً، فدخلت تركيا على خط دعم حكومة الوفاق الليبية، وهذا أمرُ أقلُّه وحدُّه الأدنى أن يؤجل انهيار طرابلس في يد حفتر إلى أمدٍ، ولعله تتغير الأحوال في هذا الأمد، وأحسن أحوال هذا الدعم التركي أن ينهار أمامه حفتر ومشروعه، وهذا مكسب ضخم، وإن كان بعيد المنال، وبين ذلك الأدنى والأقصى احتمالات كثيرة نسأل الله أن ينجي الأمة من شرِّها.

ولا يمكن فهم ضخامة الإنجاز في هذين المثالين إلا إذا تصوَّرنا ماذا كان يمكن أن يكون لو أن حماس لم تخض الانتخابات في ٢٠٠٦ ولم تأخذ قرار الحسم العسكري في ٢٠٠٧، وبقيت غزة مثل الضفة الغربية تحت سلطة فتح. أو إذا تصورنا أن أردوغان لم يخض هذه التجربة السياسية ولم يدعمها ببناء قوة ذاتية وعناصر مسلحة تتصدى للانقلاب العسكري وتؤمنه من محاولات الاغتيال! وأولئك الذين يطعنون في هذين التجربتين، مع احترامي لبعض دوافعهم وتقديري لبعض مشاعرهم، أشبه بأولئك الذين لم يتصوروا فارقاً كثيراً بين مرسي والسيسي، ولم يعرفوا أن مرسي وجماعته مع كل ما يؤخذ عليهم إنما كانوا دِرْءًا وجُنَّة من أمثال السيسي. ولعلهم يعرفون هذا الفارق إذا -لا قَدَّرَ الله- ضربت تجربة حماس في غزة أو تجربة أردوغان في تركيا.

ولماذا ننتظر أن يحدث ما لم يحدث؟ يكفي أن نمد أعيننا إلى أرض مسلمة تخلو من مثل هذه التجارب، لننظر في تركستان الشرقية وفي بورما وفي الهند (لا سيما: كشمير وولاية آسام)، فضلاً عما يجري في مصر والشام والعراق والشرق الليبي، ثم ما يجري في الخليج وأرض الحرمين واليمن.. في سائر هذه المناطق لا يجد العدو مانعاً في ذبح المسلمين وإذلالهم وقهرهم وتغيير دينهم وعقيدتهم وطردهم من بلادهم وسبي نسائهم وأولادهم وسجن علمائهم وشيوخهم.

ومن كان يتخيل أن أرض الحرمين تتحول إلى مسرح عابث كبير، وتنفجر فيها مظاهر الفجور بهذه الفجاجة؟! حتى إن الشيخ المنافق الذي يعبد ولي الأمر من دون الله يوقف عن الخطابة والتدريس لأنه مسَّ هيئة الترفيه، وهي الهيئة التي تتولى ملف نشر الانحلال والخلاعة في جوار بيت الله الحرام!





الشاهد المقصود أن المعارك التي تجري في بلادنا، بما فيها المعارك الانتخابية، والثقافية فضلاً عن المعارك السياسية والعسكرية ليست مجرد نزاعات محدودة، إنما هي عميقة التأثير والنتائج، والداعية الذي يجلس في بيته أو مسجده ويعزل نفسه عن هذا كله هو في الحقيقة يُغمض عينيه ويُسكت ضميره لأنه ليس في معزل ولا يملك أن يكون بمعزل، فكل الذي يجري هذا إنما يؤثر فيه وعليه وعلى بيئته وعلى جمهوره، والكلام الذي كان يستطيع أن يقوله بالأمس تصريحاً سيقوله اليوم تلميحاً ثم سيكتمه غداً، وبعد غد سيقول بعكسه اضطراراً وخوفاً ثم يطول به الأمد فيقوله إيماناً به واعتناقاً له، وإذا استمر هذا الحال فسيأتي جيل إذا سمع الإسلام قال "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين"!

وفي الأيام الماضية اشتعل بين المصريين جدالُ على فتاة كانت مسلمة ثم ألحدت ثم ماتت، فتعاطف معها أقوامُ ترحموا عليها وأقاموا لها صلاة جنازة وجادلوا عنها جدالاً عنيفاً ليجعلوا الترحم عليها حقاً أو واجباً.. فانظر كيف ضاعت ثوابت الدين وحلَّت مكانها تصوراتُ أخرى يظن أصحابها أنها من الدين! واتساع هذه الظاهرة وتفشيها هو أثر من آثار الانقلاب العسكري في مصر وما جرَّه من النكبات على التصورات وعلى النفوس، وما زلزله من الإيمان بالدين.

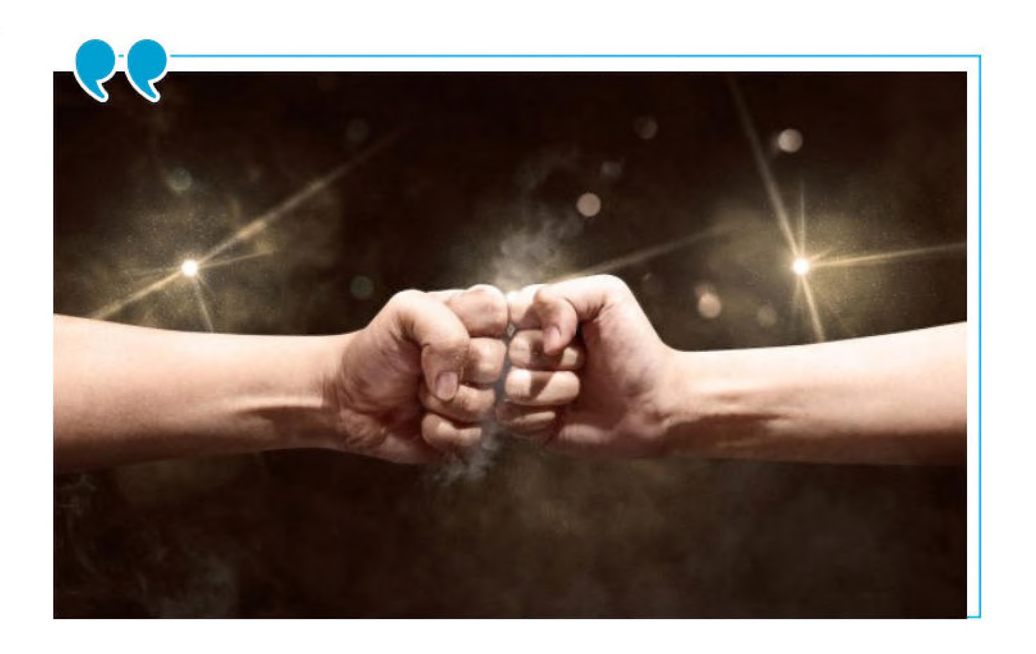
إن النصر يرفع من شأن أصحابه، ولا شيء أكثر ترويجا لفكرة ما من انتصارها في المعركة، ولهذا قيل بحق "الناس على دين ملوكهم"، وقال عثمان: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"، وهذا المعنى في كتاب ربنا (إِذا جاءَ نَصرُ اللَّهِ وَالفَتحُ وَرَأَيتَ النّاسَ يَدخُلونَ في دينِ اللَّهِ أَفواجًا)، فالنصر يفتح العقول والقلوب للفكرة، وهذه سيرة الدنيا والناس وانتشار الأفكار.

" وإن الحمل الثقيل الذي تحمله الأمة اليوم إنما هو حمل الهزائم، فالمعارك التي هُزِمنا فيها، والمعارك التي استهان آباؤنا وأجدادنا بها، والمعارك التي نكصوا عنها انشغالاً بغيرها.. كل هذا صار هو الميراث الثقيل الذي نواجهه اليوم. وإن سيرتنا مثل سيرتهم، فالمعارك التي لن نخوضها أو التي سنستهين بها أو التي سنُهزم فيها هي التي سنرى نتائجها المريرة في أنفسنا وأبنائنا، ثم ستكون عبئاً يزداد ثقله على الأجيال التالية. "

سيقرأ القارئ هذه السطور في ذكرى سقوط الأندلس (**٢ يناير ١٤٩٢م**)، وساعتها سينظر في أمتنا بعد تراكم الأثقال وتراكم الهزائم ليرى كل الأرض الإسلامية أندلساً جديدة، وهكذا: بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء!

يقول ابن القيم:

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا، وأعظمهم عند الله قدرا.



وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال:(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) [الفرقان: ٥١، ٥٢] ، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة: ٧٣]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند الله قدرا. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا -صلوات الله وسلامه عليه- من ذلك أكمل الجهاد وأتمه".

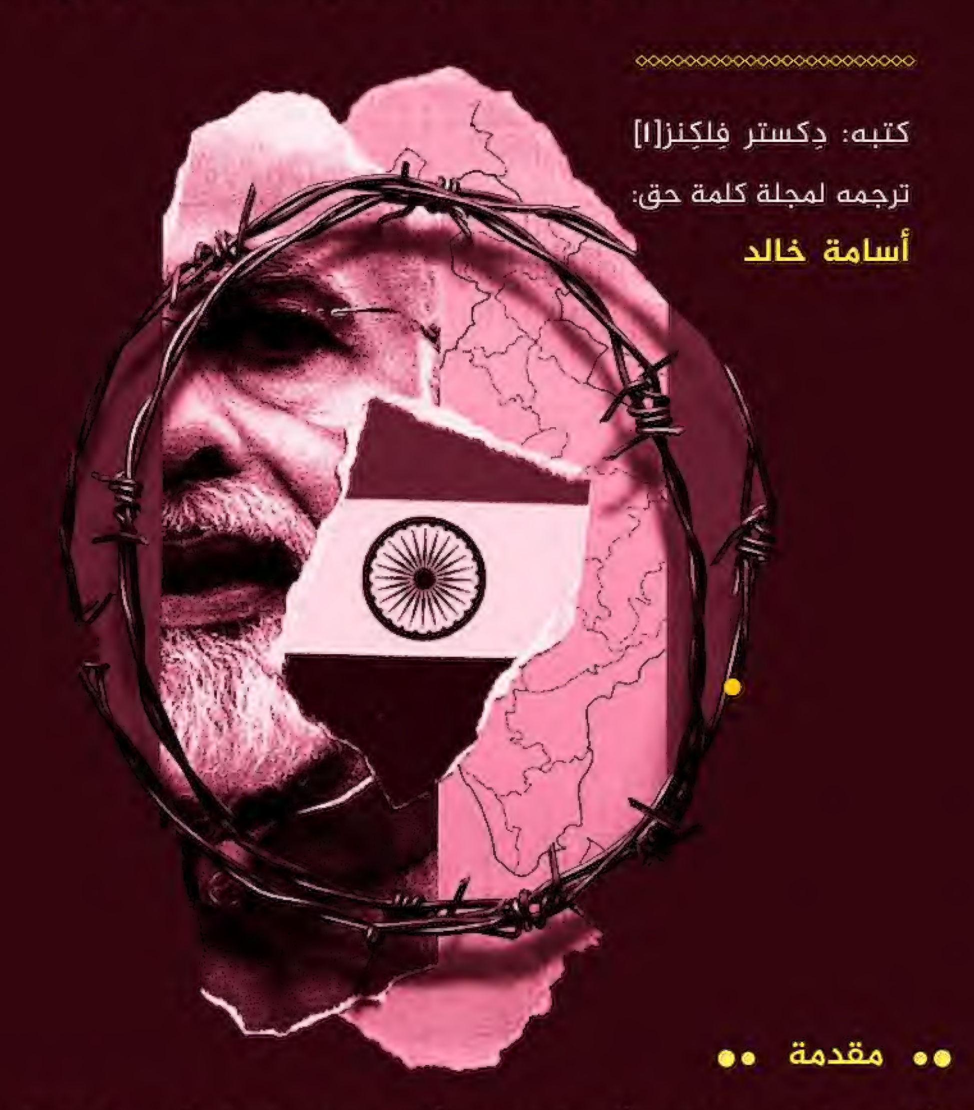
"النازية الهندية" في عهد مودي (٢/١)

٢٠٠ مليون مسلم تتخذهم الحكومة الهندوسية أعداءً

كتبه: دِكستر فِلكِنز[١]

ترجمه لمجلة كلمة حق:

أسامة خالد



•• مقدمة ••

في الحادي عشر من أغسطس وبعد أسبوعين من إرسال رئيس الوزراء ناريندرا مودي جنوداً ليعيدوا الهدوء إلى كشمير، ظهرت مراسِلةُ في مدينة سريناغار على القناة الإخبارية "Republic TV" لتأكِّد للمشاهدين أن الوضع كان هادئاً جداً أيَّاً كان ما يسمعونه. قالت: "الوضع يعود إلى طبيعته، والأهالي مستعدون ليعيشوا حياتهم بشكل طبيعي من جديد"، إلا أنها لم تجرِ أية مقابلات؛ لم يكن هناك أحد في الشوارع لتتحدث معه.

تغطيةُ أخرى لقناة "Republic TV" أظهرت الناس يرقصون بسعادة بالغة وإلى جانبهم عبارة: "هنودٌ مبتهجون يحتفلون بالخطوة الحكيمة لمودي في كشمير". قبل ذلك بأسبوع أعلنت حكومة مودي أنها ستوقف العمل بالمادة ٣٧٠ من الدستور، التي تمنح كشمير الحق بحكم ذاتي، وهي المدينة الوحيدة التي فيها أغلبية مسلمة في الهند. نصُّ المادة - الذي كُتب للمساعدة في الحفاظ على الهوية الدينية والعرقية للولاية - يمنع الأغلبية الهندوسية في الهند من الإقامة هناك. وقال مودي إن القرار سيساعد الكشميريين من خلال النهوض بالتنمية وإعاقة تمرد العصابات القائم منذ زمن طويل. ولكي يضمن استقبالاً سلساً لهذا القرار، ملأ مودي كشمير بالقوّات، واعتقل مئات المسلمين البارزين، وهي خطوة وصفتها قناة "Republic TV" بقولها إن "القادة الذين كانوا سيُحدِثون مشاكل" قد وُضِعوا في "بيوت ضيافة حكومية".

❞ لقد قلب التغيير الحاصل في كشمير الوضع القائم لأكثر من نصف قرن اتُّبِعت خلاله سياسة حذرة، لكن الصحافة الهندية ردَّت على هذا التغيير بقبولٍ شبه مُجمع عليه. منذ أن انتُخِب مودي لأول مرة كرئيس للوزراء في عام ٢٠١٤، صار يعيد صياغة قصة الهند، من الديمقراطية العلمانية التي تستوعب تنوعاً سكانياً على نحوٍ فريد، إلى بلد هندوسي يهيمن على الأقليات.. خاصة المسلمين البالغ عددهم في البلاد مائتي مليون.. قام مودي وحلفاؤه بالضغط على الصحف وتخويفها وخنقها لتأييد ما يسمونه "الهند الجديدة". ❝

استقبل الكشميريون قرار مودي بالاحتجاجات، بدعوى أن هدفه الحقيقي كان إغراق كشمير بالمستوطنين الهندوس. لكن بعد أن خفَّت حدة الاضطرابات المبدئية، بدأت صحيفة التايمز الهندية "Times of India" وغيرها من الصحف الكبرى تدَّعي أن غالبية الكشميريين يدعمون مودي بصمت - لقد كانوا خائفين للغاية من أن يعلنوا دعمهم له.. خائفين من المسلحين [الكشميريين]. أمَّا مراسلو التلفزيون القادمون حديثاً من دلهي، فقد نصبوا كاميراتهم على الشاطئ الخلاب لبحيرة دال وردَّدوا مقولة الحكومة بما يقتضيه واجبهم.


مودي

مع تداول التقارير في الأخبار، أخبرتني الصحفية رنا أيوب عبر الهاتف أنها ستذهب إلى كشمير. رنا أيوب هي أحد أبرز مراسلي التحقيقات في الهند، وتشتهر بملاحقتها لمودي ومساعديه بلا هوادة. وكونها مسلمة من مومباي، عاشت الانقسام الطائفي في البلاد طوال حياتها. وقد شكَّت في أن مقولة الحكومة التي روتها عن كشمير كانت دعايةً تخدم مصالحها. وقالت "أظن أن القمع أسوأ مما كان عليه في أي وقت مضى". لم تكن تعرف ما قد تجده، لكنها أخبرتني "أريد التحدث إلى تلك الأصوات غير المسموعة".

دعتني عبر الهاتف لمقابلتها في مومباي ومحاولة الوصول إلى كشمير، على الرغم من الحظر المفروض على المراسلين الأجانب هناك خلال الحملة. عندما وصلتُ، أعطتني وشاحين وطلبت مني أن أشتري "كورتة" وهي رداء هندي تقليدي. وقالت: "أنا متأكدة بنسبة تسعة وتسعين في المائة من أنك سيُقبَض عليك، لكن يجب أن تأتي على أي حال.. فقط لا تفتح فمك".

هبطت طائرتنا في مطار سريناغار بعد أسبوعين من إصدار مودي للمرسوم. كان في الصالة طاولة مكتوب عليها "تسجيل الأجانب". أسرعَتْ رنا أيوب بي من أمامها مع حرصها على بقاء رأسي منخفضاً. كان الحشد مليئاً بالشرطة والجنود، لكننا وصلنا إلى الرصيف دون أن نُشاهَد، وركبنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى سريناغار.

حتى ونحن ننظر من سيارة متحركة، كان من الواضح أن الواقع في كشمير مختلف على نحو صارخ عن الصورة في الصحافة الهندية السائدة. كان الجنود يقفون في كل زاوية في الشوارع. منصاتٌ فيها بنادق رشاشة تحرس التقاطعات، والمتاجر مغلقة في كل الأبنية. وبصرف النظر عن الوجود العسكري، كانت الشوارع خالية من الحياة. في المسجد الرائع الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر في خانكاه إي مولا، مُنِعت صلاة الجمعة، وأغلقت المدارس، وأوقفت خدمة الهاتف الخلوي والإنترنت.

عملاء المخابرات الهندية يراقبون لوائح الفنادق المحلية، وهذا أمر معلوم إلى حد كبير. لذا رتبنا أنا ورنا أيوب مع مصورة هندية تدعى "أفاني راي"، للإقامة مع أحد الأصدقاء. عندما وصلنا إلى هناك، أخبرنا طبيب كشميري كان في زيارة للمنزل بأن نتفحص المستشفى الرئيسي، حيث كان الشباب يعالَجون بعد أن أطلقت قوات الأمن النار عليهم. كان رجال الشرطة والجنود يستخدمون بنادق صغيرة الحجم - يطلق عليها السكان المحليون بنادق بيليه وقد أصيب بعض الضحايا بالعمى. قال الطبيب: "اذهب إلى جناح طب العيون".

في المستشفى، وجدنا مشهداً من الفوضى المسيطَر عليها بصعوبة، حيث يقوم رجال الأمن بالحراسة، وتختلط الأُسَر بالمرضى في الممرات. بينما كنت واقفاً في زاوية، محاولاً ألّا أظهر نفسي. ركضت رنا أيوب إلى الطابق الرابع لتتحدث إلى طبيبٍ للعيون. عادت بعد بضع دقائق وأومأت إليَّ وإلى راي للحاق بها. قالت: "الجناح ثمانية". كان هناك ثلاثون من ضحايا أعيرة نارية في الداخل.

عند اقتراب ثلاثتنا، اعترضَنا رجل ذو لحية قصيرة ويرتدي زياً أنيقاً ووضع يده على كتف رنا أيوب وقال لها: "ماذا تفعلين هنا؟" نظرت أفاني راي إليّ وقالت بهدوء: "اهرب" فاستدرت وانطلقت مسرعاً بين جموع الناس. أخذ الرجل الملتحي رنا أيوب وأفاني راي من ذراعيهما وقادهما بعيداً.



كان الوئام بين الهندوس والمسلمين عاملاً محورياً في الرؤية التي تبنَّاها مؤسسو الهند موهانداس غاندي وجواهر لال نهرو اللذَين أسَّسا الدولة العلمانية. وإن الهند موطن لجميع الديانات الرئيسية في العالم. يشكل المسلمون حوالي أربعة عشر في المائة من السكان. ومع استعداد الإمبراطورية البريطانية للانسحاب في عام ١٩٤٧ ، كان المسلمون يخشون الهيمنة الهندوسية لدرجة أنهم طالبوا بدولة منفصلة، أصبحت لاحقاً باكستان. تسبب تقسيم شبه القارة الهندية بأكبر هجرة في التاريخ، حيث عبر عشرات الملايين من الهندوس والمسلمين الحدود الجديدة. وفي أعمال العنف المصاحبة للهجرة، مات حوالي مليوني شخص. وبعد ذلك، كان كل من الباكستانيين والهنود يضمرون شعوراً دائماً بالضيم فيما يتعلق بعمليات القتل وفقدان أراضي الأجداد. أصبحت كشمير - الواقعة على الحدود - موقعاً لحرب طويلة بالوكالة.

قام المسلمون الباقون في الهند بحماية أنفسهم من خلال إقامة تحالف مع حزب الكونغرس الوطني- مجموعة غاندي ونهرو التي احتكرت السياسة الوطنية لمدة خمسين عاماً. إلا أنَّ تصور المؤسسين للدولة العلمانية لم يكن

متبادلاً لدى الجميع. في عام١٩٢٥، أسس كيشاف باليرام هيدْغيفار - وهو طبيب من وسط الهند - منظمة "راشتريا سوايامسيفاك سانغ" R.S.S، وهي منظمة مكرسة لفكرة أن الهند كانت دولة هندوسية، وأن أتباع الهندوسية لهم الحق بحكم الأقليات. يعتقد أعضاء R.S.S أن الكثير من المسلمين ينحدرون من هندوس كانوا قد بدّلوا دينهم بالقوة، وبالتالي فقد كان إيمانهم مشكوك في صحته. (نفس التفكير ينطبق على المسيحيين الذين يشكلون حوالي اثنين في المائة من سكان الهند. واعتُبِرت الديانات الكبرى الأخرى - من ضمنها البوذية والسيخية - منتمية إلى الهند بشكل أكثر أصالة).

كان هيدْغيفار مقتنعاً بأن الرجال الهندوس قد أضعفتهم الهيمنة الاستعمارية، وأوصى بتدريبٍ شبه عسكري كترياق. ولإعجابه بالفاشيين الأوروبيين، أخذ عنهم ميلهم للزي الرسمي ذو اللون الخاكي، والأهم منه قناعتَهم بأن مجموعة من الرجال ممن لديهم انضباط شديد يمكنهم إحداث تحول في الأمة. وكان يظن أن غاندي ونهرو، اللذَين بذلا جهوداً لحماية الأقلية المسلمة، كانا من دُعاة سياسة التهدئة الخطرين؛ أما منظمة R.S.S فقد اختارت عدم الخوض في النضال من أجل الحرية.

في يـاير ١٩٤٨ ، بعد الاستقلال بفترة وجيزة، اغتيل غاندي على يد ناتهورام غودسي، وهو عضو سابق في منظمة R.S.S ونعرته القومية الهندوسية كانت مُعلَنة. حُظرت منظمة R.S.S مؤقتاً وتحولت إلى هامش الحياة العامة، إلا أن الجماعة كوَّنت نفسها من جديد تدريجياً. وفي عام ١٩٧٥، وسط اضطرابات مدنية وركود اقتصادي، علقت رئيسة الوزراء أنديرا غاندي عمل البرلمان وفرضت قانون الطوارئ. عارضتها منظمةR.S.S بشدة هي وحلفاءها من حزب الكونغرس. أُلقي القبض على الكثير من أعضاء المنظمة مما ساعد على إضفاء الشرعية على الجماعة عند دخولها من جديد إلى التيار السياسي السائد.

كان الأساس الأول لمنظمة R.S.S هو رجال من الطبقة العليا، ولكن من أجل أن تنمو الجماعة كان عليها توسيع باب العضوية. كان من بين المجندين من

الطبقة الدنيا ولدُ يبلغ من العمر ثماني سنوات يدعى "ناريندرا مودي" من فادناغار، وهي بلدة في ولاية غوجارات. كان مودي ينتمي إلى طبقة مجتمعية سفلى تدعى غانشي، وكان الناس من هذه الطبقة يبيعون الزيوت النباتية. كان والد مودي يدير مقهى شاي صغيراً بالقرب من محطة القطار، حيث ساعده ابنه الصغير. عندما كان مودي في الثالثة عشر من عمره، رتب والداه أمر زواجه من فتاة من سكان المنطقة، لكنهما تعايشا لفترة وجيزة فقط، ولم يعترف مودي علناً بالعلاقة لسنوات عديدة. سرعان ما ترك مودي الزواج بالكامل وكرس نفسه لمنظمة R.S.S. بدأ مودي بتنظيف أماكن معيشة كبار الأعضاء، لكن مكانته ارتفعت بسرعة. في عام ١٩٨٧، انتقل إلى الفرع السياسي في منظمة R.S.S: حزب بهاراتيا جاناتا، أو B.J.P.



عندما انضم مودي، كان للحزب مقعدان فقط في البرلمان. احتاج الحزب إلى قضية ما لجذب المتعاطفين، ووجد واحدة في نزاع ديني غامض. في مدينة أيوديا الشمالية كان هناك مسجد، كان اسمه "مسجد بابري"، بناه الإمبراطور المغولي بابور عام ١٥٢٨. وبعد الاستقلال وضع السكان المحليون أصناماً هندوسية داخل المسجد وأصبحوا مقتنعين بأنه قد بُني مكان معبد هندوسي سابق.

في سبتمبر، ١٩٩٠، أحد كبار B.J.P واسمه "لال كريشنا أدفاني" بدأ يدعو إلى هدم مسجد بابري وبناء معبد هندوسي مكانه. وليحصل على دعم لهذه الفكرة، قام بحجٍّ اسمه "رام راث ياترا" لمدة شهرين في قلب الهند. كان يسافر في سيارة أُعيد تصميمها لتبدو كعربة وكان يلقي أحياناً عدة خطب يومياً محاولاً إثارة جموع الناس بشأن ما عده: "تفضيل الحكومة للمسلمين". تبع ذلك أعمال شغب طائفية، مخلِّفة مئات القتلى. اعتُقِل لال كريشنا أدفاني قبل وصوله إلى أيوديا، إلا أن أعضاء آخرين من حزب B.J.P تابعوا الأمر وجمعوا مؤيدين وتبرعات على طول الطريق. وفي السادس من ديسمبر ١٩٩٢، اندفع حشدٌ يقوده أنصار منظمة R.S.S إلى مسجد بابري وبدأوا بهدمه بالفؤوس والمطارق. وبحلول الليل كان قد دُمر بالكامل. أثار تدمير المسجد أعمال شغب بين الهندوس والمسلمين في جميع أنحاء البلاد، وكان أكبرها وأكثرها دموية في مومباي.

في البداية، شعرت عائلة رنا أيوب بالأمان؛ كانوا محاطين بالأصدقاء. ولكن بعد عدة أيام من الفوضى، جاءهم صديق من السيخ اسمه "العم باغًا"، لإبلاغ والد رنا أيوب بأن ثلَّة من رجال الحي كانوا قادمين يريدون بناته. رنا، التي كان عمرها في ذلك الوقت تسع سنوات، هربت هي وشقيقتها الكبرى "عِفَّتْ" مع العم باغًا. مكثوا مع بعض أقاربه لمدة ثلاثة أشهر، قبل أن يجتمعوا مع الأسرة في "ديونار" وهو حي للمسلمين يبعد بضعة أميال. قالت لي رنا: "شعرتُ بالعجز.. لقد كنا مثل الألعاب، ينقلنا أحدهم من مكان إلى آخر".

ديونار حيٌّ فقير، المجاري فيه منتنة وأكواخه من الصفيح. قالت رنا: "كنا نعيش في مكان صغير للغاية، قذر للغاية، في شارع مزدحم وقذر جداً". حدث تحول في مومباي أيضاً. عندما التحقت رنا بمدرسة قريبة أغلبُها هندوس، كان زملاؤها ينادونها: "landya"، وهو سُبابٌ يُرمَى به المسلمون. وقالت: "كانت تلك المرة الأولى التي أفكر فيها حقاً في هويتي.. كان الحي الذي نعيش فيه - أصدقاؤنا - سيقتلوننا".



بالنسبة لمنظمة R.S.S، فإن المبادرة في أيوديا أثمرت بشكل مذهل. ارتفعت نِسَب العضوية وبحلول عام **١٩٩٦** أصبح حزب B.J.P أكبر حزب في البرلمان. أثناء النزاع بشأن مسجد بابري بدأ "آشيس ناندي" - وهو مفكر هندي بارز - بسلسلة من المقابلات مع أفراد منظمة R.S.S. ولكونِه طبيباً نفسياً ذا خبرة، أراد أن يدرس عقلية القوميين الهندوس الصاعدين. أحد هؤلاء الذين قابَلَهم كان نارييندرا مودي، الذي كان آنذاك موظفاً في حزب B.J.P ولا يعرفه الكثيرون. أجرى آشيس ناندي مقابلة مع مودي لعدة ساعات، ثم خرج مضطرباً.

أخبرني آشيس ناندي أن مودي أظهر جميع سمات الشخصية الاستبدادية: الصلابة المتزمتة، والحياة العاطفية الضيقة، والخوف من عواطفه، وغرورٌ هائل يستر وراءه شعوراً مزعجاً بانعدام الأمن. خلال المقابلة، أسهب مودي في الكلام عن نظرية خيالية.. كيف أن الهند كانت هدفاً لمؤامرة عالمية، وأن من المرجح أن كل مسلم في البلاد مشترك فيها. قال آشيس ناندي: "كان مودي فاشياً بكل معنى الكلمة.. لا أقصد بالمصطلح الإساءة. إنه صنف تشخيصي".

في **٢٧** فبراير **٢٠٠٢**، توقف قطار للركاب في غودرا، وهي مدينة في ولاية غوجارات. كانت قادمة من أيوديا، حيث ذهب الكثير من الركاب لزيارة الموقع

الذي دُمِّر فيه مسجد بابري قبل عشر سنوات، ولتأييد بناء معبد هناك. كان ينتمي معظمهم إلى الجناح الديني في منظمة R.S.S الذي كان يسمَّى V.H.P بينما كان القطار في المحطة، بدأ المسافرون الهندوس والمسلمون على المنصة بسلسلة من الأسئلة المزعجة والمقاطعات، ومع ابتعاد القطار توقفت، ثم ازدادت وتيرة السخرية. في لحظة ما، ألقى أحدهم النار على إحدى السيارات، قد يكون بائعاً مسلماً لديه موقِد، انتشر اللهب، وكان الركاب محاصرين في الداخل. عندما فُتِح الباب أخيراً، أشعَلَ اندفاع الأكسجين كرة نارية. اختنق حوالي ثمانية وخمسين شخصاً أو احترقوا حتى الموت. عندما انتشر خبر الكارثة، سمحت حكومة الولاية لأعضاء حزب V.H.P بتسيير موكب للجثث المحترقة في أحمد أباد أكبر مدن الولاية. بدأ الهندوس الذين أغضبهم ما رأوه في الموكب بمهاجمة المسلمين في جميع أنحاء الولاية.

تجولت حشود من الهندوس في الشوارع وكانوا يرددون فيها: "انتقموا واذبحوا المسلمين!". وأفاد شهود عيان أن مثيري الشغب بقروا بطون نساء حوامل وقتلوا أطفالهن، واغتصب آخرون نساءً وفتيات بشكل جماعي. وفي حالة واحدة على الأقل، أُجبر صبي مسلم على شرب الكيروسين وابتلاع عود ثقاب مشتعل. عُرِض إحسان جعفري - وهو سياسي كبير في حزب الكونغرس عارياً ثم قُطِّع جسده وحُرِق.

كان الجانب الأكثر شرّاً من أعمال الشغب هو أن التخطيط لها وتوجيهها كان يبدو إلى حد كبير أن منظمة R.S.S هي التي قامت به. وانتشرت فرق من الرجال مسلحين بالهراوات والبنادق والسيوف عبر الجيوب المسلمة في الولاية، وغالباً ما كانوا يحملون قوائم للناخبين وغيرها من الوثائق الرسمية التي قادتهم إلى منازل المسلمين ومحلاتهم.

رئيس وزراء حكومة غوجارات كان وقتها ناريندرا مودي، الذي عُيِّن في هذا المنصب قبل ذلك بخمسة أشهر. مع ازدياد وتيرة أعمال الشغب تخفَّى مودي..

استدعى الجيشَ الهندي لكنه أبقى على الجنود في ثكناتهم بينما خرج العنف عن السيطرة. وحسبما ذكرت العديد من مجموعات حقوق الإنسان أن الكثير من مناطق غوجارات، لم تقف الشرطة فيها موقف المتفرج فحسب، بل شاركت في العنف.



عندما بدأت أعمال الشغب كان "راهول شارما" كبير ضباط الشرطة المسؤول عن بافناغار، وهي منطقة يبلغ عدد سكانها المسلمين أكثر من سبعين ألفاً. قال راهول شارما في شهادة أقسم عليها في وقت لاحق أنه لم يتلقَ أي توجيه من رؤسائه بشأن كيفية السيطرة على أعمال الشغب. وفي اليوم الرابع تجمع حشد من الآلاف حول مدرسة أكوادا، وهي مدرسة إسلامية كان فيها حوالي أربعمائة طفل بداخلها. وكان المهاجمون يلوحون بالسيوف والمشاعل. قال راهول شارما: "لقد كانوا يتصرفون بطريقة منظمة.. لقد كانوا سيقتلون الأطفال". أمر راهول شارما رجاله باستخدام القوة المميتة لمنع وقوع أي هجوم؛ وعندما لم يكن لطلقات التحذير أي أثر، أطلقوا النار فقتلوا رجلين وأصابوا العديد من الآخرين. تفرَّق الحشد وصحب راهول شارما الأطفال إلى بر الأمان.

مع ذلك، استمر العنف دون رادع في كل منطقةٍ أخرى تقريباً. أما راهول شارما.. بدلاً من الاحتفال به كبطل، نُقِلَ إلى خارج الحي إلى وظيفة مكتبية لإشغاله. أما لال كريشنا أدفاني المؤيد لهدم المسجد في أيوديا، والذي ارتقى

إلى منصب وزير الداخلية في الهند اتصل براهول شارما وأشار له أنه ترك الكثير من الهندوس يموتون.

استمرت أعمال الشغب لمدة ثلاثة أشهر تقريباً وعندما انتهت، مات ما يقرب من ألفي شخص وهُجِّر قرابة المائة وخمسين ألفاً من الناس من منازلهم.

غُيِّرت طبيعة الجغرافيا العرقية في ولاية غوجارات بحشر معظم المسلمين إلى الأحياء الفقيرة. أنشئ أحد الأحياء الفقيرة داخل مكَبّ أحمد آباد، وهو مشهد شاسع من مياه المجاري والقمامة التي ارتفعت لمئات الأقدام في الهواء. (هذا الحي الفقير الذي يطلق عليه سكانه اسم "قرية المواطنين" ما يزال موطنا لآلاف الأشخاص الذين يعيشون في أكواخ ويتنفسون الهواء الضار، وعندما تأتي الرياح الموسمية، فإن القذارة من القمامة تغمر الشوارع والأكواخ).

عندما اندلعت أعمال الشغب، قررت رنا أيوب المساعدة وكانت في ذلك الوقت في التاسعة عشرة. وبعد أن أخبرت والدتها أنها ستذهب في رحلة مع صديقة لها في جبال الهيمالايا، ركبت في قطارٍ إلى مدينة فادودارا في غوجارات. نظراً لأن الاضطرابات كانت ما تزال مشتعلة، فقد تنكَّرت بزيٍّ هندوسي: بندي أحمر قاني ونقطة حمراء تضعها نساء الهندوس على جباههن.

أمضت رنا ثلاثة أسابيع فـي المخيمات الإغاثيـة، حيث ساعدت ضحايا الاغتصاب في تقديم بلاغات للشرطة. كانت المخيمات محاطة بمراحيض مفتوحة، وكانت رائحة المجاري قوية جداً. والأطفال يستلقون والذباب عليهم. في بعض الأحيان، كانت عصابات مسلحة بالسيوف وزجاجات المولوتوف تبحث عن المسلمين. وخلال عملية هجوم واحدة، اختبأت رنا أيوب في أحد المنازل وأمعنت النظر إلى حشد فيه نحو ستين رجلاً مندفعين إلى الخارج. قالت: "كان قلبي يخفق بشدة.. غوجارات جعلتني أدرك أن ما حدث في مومباي لم يكن حالة استثنائية".



بعد أعمال الشغب، لم تفعل حكومة مودي شيئاً تقريباً لتوفير احتياجات عشرات الآلاف من المسلمين الذين أُجبروا على ترك منازلهم؛ المساعدات كلها تقريباً كانت تأتي من المتطوعين. وردّاً على سؤالٍ بهذا الشأن، قال مودي: "المخيمات الإغاثية هي في الواقع مصانع لإنتاج الأطفال. يجب أن يُلقَّن أولئك الذين يستمرون بالتكاثر درساً". وعلى الرغم من أن بعض مثيري الشغب من الهندوس قد اعتُقِلوا، فقد أُدين بضع عشرات فقط في النهاية. "مايا كودناني" وزيرة تنمي لحزب B.J.P كانت المسؤولة الوحيدة التي قُرِّر أن تعاقب بشكل كبير.. أُدينت بالقتل والشروع بالقتل والتآمر. وعندما وصلت حكومة مودي في وقت لاحق إلى السلطة في دلهي، بُرِّأت مايا كودناني من جميع التهم.

"في الأشهر التالية، كانت هناك مؤشرات على تورط كبير للحكومة في الذي حدث. وفقاً لتحقيقات مستقلة، تحركت عصابات الهندوس بحزم متَّبعة قادةً كان يظهر أنهم تلقوا تعليمات واضحة. خَلُصَ التحقيق غير الحكومي الذي شارك فيه قضاةٌ سابقون في المحكمة العليا ومسؤولٌ كبير في الشرطة إلى أن "الحكومة نشرت هذه التعليمات بشكل سافر، وفي معظم الحالات - ما عدا بعض الاستثناءات القليلة جداً - أنفذتها الشرطة والخدمة الإدارية الهندية بشكل منظَّم..". "

خلال أعمال العنف، سافر مسؤول فيدرالي كبير يدعى هارش ماندر إلى ولاية غوجارات وأصيب بالذهول من الإهمال الحكومي. وعندما لاحظ أن العديد من زملائه كانوا متواطئين في حمَّام الدم، ترك العمل في وظيفته مبكراً واتجه للعمل في المخيمات المؤقتة التي كان يتجمَّع فيها اللاجئون المسلمون. وكرس الكثير مما تبقى من حياته لتذكير عامة الناس بما حدث ومن كان المسؤول. قال لي هارش ماندر: "لا يحدث أي شغب طائفي في الهند ما لم ترغب الحكومة في ذلك.. لقد كانت هذه مجزرة برعاية الدولة".

ادعى بعض المسؤولين أن قرار تشجيع أعمال الشغب جاء من مودي نفسه. هارين بانديا - أحد منافسي مودي ووزير في مجلس الوزراء - أدلى بشهادة تحت القَسَم بشأن أعمال الشغب، وتحدث أيضاً إلى المجلة الأسبوعية آوتلوك "Outlook". وقال إنه حضر اجتماعاً في بيت مودي في الليلة التي بدأت فيها الاضطرابات، وفي الاجتماع أَمَرَ مودي كبار مسؤولي الشرطة بـ "السماح للناس بالتنفيس عن إحباطهم وعدم اعتراض ردود أفعال الهندوس". وذَكَرَ مسؤولٌ في الشرطة يدعى "سانجيف بهات" أن مودي في اجتماع آخر في تلك الليلة قال إنه يأمل أن "يتعلم المسلمون درساً لضمان عدم تكرار مثل هذه الحوادث".

ولكن لم تكن هناك إرادة سياسية كبيرة لمتابعة الأدلة ضد مودي، ولم يستمر حضور متَّهِميه أمام أنظار العامَّة لفترة طويلة. فبعد أن وجَّه "سانجيف بهات" اتهامه، اتُّهِم بقتل أحد المشتبه بهم في مخفر الشرطة - وهي قضية ظلت خامدة لأكثر من عقدين - وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة. وفي عام ٢٠٠٣، عُثِر على الوزير هارين بانديا ميتاً في سيارته في أحمد آباد. لم تترك زوجته مجالاً كبيراً للشك فيمن اعتقدت أنه وراء ذلك. قالت: "لقد كان اغتيال زوجي جريمة قتلٍ سياسية".

أما مودي، فقد كان لأعمال الشغب تأثيرٌ ملحوظ عليه. مُنِع من السفر إلى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة لما يقرب من عقد من الزمان، وتجنَّبه كبار قادة حزبه. (في عام ٢٠٠٤، جرى التصويت على عزل رئيس الوزراء "آتال بيهاري فاجبايي" المنتمي لحزب B.J.P. فألقى باللوم على مودي في تلك الخسارة).

بالرغم من ذلك، عَلَت مكانته في ولاية غوجارات. وبدلاً من السعي لتسوية الخلاف، قاد مودي مسيرة جريئة عبر الولاية اعتزازاً بالهندوسية، والتي قوبلت بتأييد كبير. غالباً ما تحدث مودي بلغة لا تكاد تكون مشفرة أشارت إلى أتباعه بأنه يشاطرهم تعصبهم. في أحد الخطابات خلال المسيرة، ألمح أن مسلمي الدولة كانوا عائقاً يجب التغلب عليه فقال: "إذا رفعنا من احترام الذات والروح المعنوية لخمسين مليون من الغوجاراتيين، فإن مخططات من يُدعون بعلي وجمال [يقصد المسلمين] لن تكون قادرة على إلحاق الأذى بنا" فهتف الحشدُ لذلك. في شهر ديسمبر في ذلك العام، بعد حملة ألقى فيها عدة خطب تحريضية ضد المسلمين، قاد حزب B.J.P إلى فوز انتخابي ضخم في ولاية غوجارات.

وفي المناطق الأخرى في الهند كانت حظوظ حزب B.J.P تسوء، ونتيجةً لذلك تمكنت عصبة مودي المتزمتة من الاستيلاء على قيادة الحزب. كما بدأ مودي ببناء سمعة وطنية كزعيم مؤيد للأعمال التجارية، ترأّس عملية تنمية اقتصادية سريعة. قالت لي رنا أيوب: "كان حزب B.J.P يحتضر وكانت الفرصة الوحيدة التي أتيحت له للوصول إلى السلطة هي مودي، لأنه كان لديه كل أولئك الأتباع - كل كبار رجال الأعمال - وهكذا نُسِيت جميع أعمال الشغب". في النهاية، أعلن فريق تحقيق تابع للمحكمة العليا أنه لا يوجد دليل كافٍ لتوجيه الاتهام إلى مودي فيما يتعلق بأعمال الشغب، وهي نتيجة رفضتها جماعات حقوق الإنسان باعتبارها تخضع لدوافع سياسية. حاول عدد قليل من مؤيدي القضية إبقاءها حية. ففي عام ٢٠٠٧، عندما ظهر مودي على شبكة CNN-IBN الهندية، سأله الصحفي كاران ثابار: "لماذا لا تستطيع أن تقول إنك نادم على عمليات القتل؟"

أجاب مودي وقد تصلبت تقاسيم وجهه: "ما يجب عليَّ قوله كنت قد قلته آنذاك". وعندما أصرَّ الصحفي كاران ثابار باستمرار.. انفعل مودي وقال: "عليَّ أن أستريح.. أحتاج بعض الماء". ثم انتزع الميكروفون ومضى مبتعداً.



وفي عام ٢٠١٣، عندما سأله مراسل آخر إن كان يشعر بالأسى لوفاة الكثير من المسلمين.. قال إنه كان متفرجاً عاجزاً وقال: "إن كان شخص ما يقود سيارة ونحن نجلس في الخلف، حتى في ذلك الحين، إن أتى جرو تحت العجلة، فهل سيكون ذلك مؤلماً؟ بالطبع سيكون كذلك".

يرى العديد من المراقبين أن نجاح مودي يعود لرغبته في اللعب على وتر مشاعر الاستياء العميقة، التي كان يُعدُّ الحديث عنها في الأوساط الراقية لعقود بمثابة إهانة. على الرغم من أن مسلمي الهند كانوا عادة أكثر فقراً من المواطنين الآخرين، إلا أن الكثير من الهندوس شعروا بأن الحكومة المركزية كانت تظلمهم بتفضيلها لأولئك المسلمين عليهم. كان الهندوس ينتقدون بشكل غير مُعلن إنجاب المسلمين للكثير من الأطفال ودعمهم للإرهاب. جعلت تجربة غاندي ونهرو المسلمين يشعرون بالأمان بشكل غير عادي في الهند خارج كشمير.. نتج عن ذلك بشكل جزئي أن كان هناك تطرف قليل جداً؛ ومع ذلك، كان يرى الكثير من الهندوس أنهم يشكلون تهديداً دائماً.

وقد أخبرني "نيرجاري سينها"، وهو عالم في غوجارات كان يبحث في قضية أعمال الشغب: "لقد أصبح مودي بطلاً بنظر جميع الهندوس في الهند.. هذا ما يقوله لي الناس في الحفلات وفي دعوات العشاء. الناس يشعرون بالفعل أن المسلمين إرهابيون، وأن الفضل يعود لمودي في جعل المسلمين أخيراً تحت السيطرة".

بعد أن تخرجت رنا أيوب في كلية صوفيا في مومباي قسم الأدب الإنجليزي، تنقَّلت بين مواقع الإنترنت والقنوات التلفزيونية قبل أن تستقر في مجلة تسمى "تيهيلكا" Tehelka. ولأن هذه المجلة تنشر باللغة الإنجليزية، كان تداولها قليلاً ولكن سمعتها كانت عظيمة فيما يتعلق بالتحقيقات الصعبة. باشرت رنا أيوب العمل، وكتبت عن عمليات القتل التي ارتكبتها الشرطة وعن تجارة المهرَّبات التي أدارها مسؤولون في مومباي.

"في عام ٢٠١٠، في سلسلة من المقالات الرئيسية لمجلة تيهيلكا، ربطت رنا أيوب أقرب مستشاري مودي واسمه "آمِت شاه" بجريمة مثيرة. كانت عائلة آمِت شاه من الطبقة العليا، وكان قد درس الكيمياء الحيوية لكنه امتاز بخبرته في التكتيكات السياسية. ولمنصبه كرئيس لرابطة غوجارات للشطرنج في وقت ما، ساعد مودي مرتين في التخطيط لانتخابه كأفضل مسؤول في غوجارات. وبعد ذلك أصبح وزيراً للشؤون الداخلية."

كانت رنا أيوب تبحث في قضية كانت قد بدأت قبل ذلك بخمس سنوات، عندما أعلنت الشرطة في غوجارات أنها قتلت رمياً بالرصاص إرهابياً مشتبهاً به أرسلته باكستان لاغتيال مودي. لكن الإعلان أثار الشك لدى الأوساط السياسية والصحفية. كانت هناك شائعات تنتشر بأن الشرطة قتلت مجرمين، ثم تظاهروا أنهم قتلوا رجال اغتيالات مسلمين أحبِط مسعاهم بشكل بطولي قبل وصولهم إلى مودي. الهنود المدركون لحقيقة الأمر سخروا من مزاعم الشرطة لكونها "مواجهات وهمية [مع رجال عصابات أو إرهابيين]"، لكنهم من ضمن الغوجاراتيين الذين شعروا بالقلق من أعمال الشغب ساعدوا في تحسين سمعة مودي كمدافع عن الهندوس.



اتضح أن القاتل المزعوم، يدعى "شوراب الدين شيخ"، لم يكن له تاريخ في النضال الإسلامي. قبل مضي الكثير من الوقت أثبت المحققون الفيدراليون أنه قد قُتِل على أيدي الشرطة. كان هناك شهود، بمن فيهم زوجة شوراب الدين شيخ وشريكه في الإجرام. لكن بعد يومين من قتله قُتلت زوجته وحُرقت جثتها؛ وقُتِل شريكه في مخفر الشرطة بعدها بعام.

لم تظن رنا أيوب أن المسؤول الأكبر عن ذلك هم الشرطة. قالت لي: "لم أنظر أبداً إلى الاعتقالات التي حصلت، ولا إلى الأشخاص الذين أطلقوا النار.. إنما بحثت عن الرؤوس الكبار في الجريمة". ذَكَرَ أحد المصادر وهو ضابط شرطة أن آمِت شاه كان متورطاً. التقت رنا أيوب بالضابط في المرة الأولى في منزل منعزل في الريف. قالت لي: "لاحَظَ الضابط أن يديَّ كانتا ترتجفان فقال: إن كنت ماضية في هذا الأمر فعليكِ التوقف عن الارتجاف". وفي المرة التالية التي التقيا فيها - وكانت في مقبرة في الساعة الثالثة صباحاً، كانت رنا أيوب مرتدية برقعاً - أعطاها قرصاً مضغوطاً مخفياً في باقة زهور. حوى القرص تسجيلات لمكالمات آمِت شاه الهاتفية لست سنوات، بما في ذلك أوقات مكالماته ومواقعها.

أوضحت رنا أيوب عن طريق السجلات أن آمِت شاه والضباط الثلاثة المشتبه بهم في قتل شريك شوراب الدين شيخ كانت اتصالاتهم مكثفة، قبل وبعد القتل. كما قَدَّمت في تقاريرها شرحاً لدوافع آمِت شاه: أخبرها مسؤول في الشرطة أن المجرمين المقتولين "كانوا يعرفون شيئاً كان يمكن أن يدين الوزير".

لم تكن رنا أيوب أول صحفية تفضح التجاوزات الحكومية في القضية، لكن الأدلة حول آمِت شاه كانت متفجرة. طلب منها عملاء فيدراليون نسخة من سجلات مكالمات آمِت شاه الهاتفية فرفضت إعطاءهم إياها. وفي غضون أسابيع، اعتُقِل آمِت شاه بتهمة القتل والابتزاز. اتهم بتورطه في نفس الأعمال غير المشروعة التي مارسها شوراب الدين شيخ. (أنكر متحدثُ باسم آمِت شاه تواطؤه قائلاً، "إن آمِت شاه أُلبِس الجريمة المذكورة لاعتبارات سياسية"). وفي النهاية، اتَّهمت الشرطة الفيدرالية ثمانية وثلاثين شخصاً آخرين، بمن فيهم كبير مسؤولي الشرطة في غوجارات، وزير الداخلية السابق لولاية راجاستان، وأكثر من عشرين ضابطاً يشتبه في تورطهم في جرائم القتل.

في الصباح الذي أُلقي القبض فيه على آمِت شاه، استيقظت رنا أيوب لتجد أن تقريرها تصدَّر عناوين الأخبار. قرأت مذيعة تلفزيونية مشهورة إحدى فقرات التقرير كاملة على الهواء فقالت: "كنت مجرد فتاة مسلمة في السادسة والعشرين من عمري. شعرت أن الناس سيرَون أخيراً ما يمكنني القيام به." مقالاتها مع مقالات أخرى تسببت في إجراء سلسلة من التحقيقات الرسمية بشأن شرطة غوجارات، الذين اشتُبِه بقتلهم لأكثر من عشرين شخصاً في "مواجهات مزيفة [مع مسلحين أو عصابات]". ولكن حتى آمِت شاه لم يكن الرأس الكبير باعتقاد رنا أيوب. أخبرها مصدر معلوماتها أن الشرطة كانت تحت ضغط شديد لإيقاف التحقيق وإخفاء السجلات عن أنظار المحققين الفيدراليين ملمحاً أن شخصاً قوياً كان يحاول إخماد القضية. كان عنوان إحدى مقالاتها:

"لماذا إذن ناريندرا مودي يحمي آمِت شاه؟"



على الرغم من الأدلة التي تراكمت بشأن مودي، إلا أنه أصبح أقوى. ذُكِر على نحو متزايد كمرشح للمكتب الوطني. في عام ٢٠٠٧، أثناء ترشحه للانتخابات كرئيس للوزراء، سخر مودي من أعضاء حزب الكونغرس لملاحقتهم إياه. وقال أمام جمع من المؤيدين: "يقول أعضاء حزب الكونغرس إن مودي يتورط في "مواجهات"، قائلين إن مودي قتل شوراب الدين. أخبروني.. ماذا عليَّ أن أفعل بشوراب الدين؟"

هتف جمع المؤيدين: "اقتله! اقتله!"

بعد أسابيع قليلة من اعتقال آمِت شاه، خطرت لرنا أيوب فكرة لمقال جديد: "إن كان بمقدوري ملاحقة آمِت شاه، لم لا أستطيع ملاحقة مودي؟" وأخبرت محرريها في تيهيلكا أنها تشتبه في ارتكاب مودي لجرائم أخطر مما ورد ضدَّه في السابق. رأت أنها إن ذهبت سراً يمكنها أن تتسلل إلى دائرته الضيقة ومعرفة الحقيقة.

في الولايات المتحدة، من القواعد الأساسية للصحافة ألا يكذب الصحفيون بشأن هويتهم.. فالعمليات السرية مقيَّدة بقواعد المهنة. غير أن هذه

الممارسة أكثر شيوعاً في الهند، إن كانت مَثاراً للخلاف في الأصل. في عام ٢٠٠٠، أرسلت مجلة تيهيلكا لاعباً سابقاً في لعبة الكريكيت، كان يحمل كاميرا مخفية، لفضح التلاعب في نتائج المباريات والرشوة الشائعَين في هذه الرياضة. في وقت لاحق من ذلك العام، صحفيان كانا يتظاهران أنهما مندوبا شركة وهمية لبيع كاميرات الأشعة تحت الحمراء لوزارة الدفاع. وافق **٣٦** من المسؤولين على تلقي الرشاوى.. واستقال وزير الدفاع.

أخبرني تارون تيجبال محرر تيهيلكا أنه لم يأذن بالتحايل إلا عندما ظهر ألّا سبيل آخر للحصول على الخبر. وقال: في هذه الحالة "مودي وآمِت شاه لا يمكن مسُّهما. ولن تظهر الحقيقة أبداً." وقال لرنا أيوب أن تمضي في مسيرها.

عندما بدأت رنا بإعداد التقارير ابتكرت تمويهاً متقناً صُمِّم ليروق لتفاهة المؤسسة السياسية في غوجارات. وقالت: "الهنود يعانون من ضعف تجاه الاعتراف بهم في أمريكا". "فكرة أن يكونوا مشهورين في الولايات المتحدة كانت عندهم لا تقاوَم". غيرت اسمها إلى "مايتيلي تياغي"، طالبة أمريكية هندية في المعهد السينمائي الأمريكي في لوس أنجلوس، تزور الهند لتصوير فيلم وثائقي. اختلقت قصةً عن أسرتها قائلة إن والدها كان بروفيسوراً في اللغة السنسكريتية ومحباً للأفكار القومية الهندوسية. تدربت رنا على لهجة أمريكية، ولكي تبدو قصتها حقيقية أكثر استعانت بمساعد فرنسي، سمَّته مايك. والداها فقط كانا يعرفان ما كانت تفعله وبقيت على اتصال معهما على هاتف منفصل.

في خريف عام ٢٠١٠، استأجرت رنا غرفة صغيرة في أحمد آباد. ولمدة ثمانية أشهر، كانت تشق طريقها إلى النخبة من سكان المنطقة، مدَّعية أن فيلمها سيركز على الذين ازدهروا في غوجارات في عهد مودي. قالت لي "أكبر دعم لمودي يأتي من الغوجاراتيين الأمريكيين. قلت لهم: 'أريد أن ألتقي بأكثر الناس نفوذاً ممن يمكنهم أن يرووا لي قصة السر وراء ما فعله السيد مودي في السنوات الخمس عشرة الماضية' ".



في البداية، لم تظهر رنا أيوب ومايك إلا في المناسبات الاجتماعية غير السياسية لكي يتعود السكان على رؤيتهم في المنطقة. عندما اقتربت أكثر بدأت تضع كاميرات وميكروفونات خفية في ساعتها وفي لباسها وفي هاتفها. كانت رنا أيوب موضع ترحيب في كل مكان تقريباً. وقالت إنها استطاعت أن تلتقط تسجيلات فاضحة لكبار المسؤولين الغوجاراتيين، اتَّهَم بعضُهم مودي وآمِت شاه بشكل مباشر بارتكاب مخالفات. حتى مودي وافق على رؤيتها والحديث معها لوقت قصير في مكتبه، حيث أعطاها الموظفون نسخاً فيها سيرته لتقرأها. أراها مودي نسخاً من كتب باراك أوباما. ذكرت رنا ما قاله لها مودي: "قال لي: 'يا مايتيلي، انظري إلى هذا.. أريد أن أكون مثله يوماً ما' ". لقد صُعقَتْ من مكره. قالت: "اعتقدتُ أن مودي إما سيكون رئيساً للوزراء أو أنه سوف يُسجَن".

(يُتبَع إن شاء الله في العدد القادم من مجلة كلمة حق)

---

[١] مترجم عن تقرير صحيفة النيو يوركر، ٩ ديسمبر ٢٠١٩، رابط إلكتروني.



تلك العتمة الباهرة

أحمد حمدان

فرغت من كتاب (تلك العتمة الباهرة)، وهي شهادة تاريخية صاغها الروائي الفرنكفوني «الطاهر بن جلّون» على لسان المعتقل السابق في سجن تزمامارت عزيز بنبين.

وقد فاز هذا المؤلف بجائزة (امباك دبلن الأدبية) في سنة ٢٠٠٤ على هذا الكتاب.

وهذا الكتاب يصنف من أدب السجون. وقد كُتِبَ بالفرنسية وهذا يُنبئك بقوة ودقة مترجمه «بسام حجار» الذي قد يجعلك تظن أن الكتاب أُلف بالعربية أصلاً.

وتقريبًا جميع كتب سجن تزمامارت قد كُتبت بالفرنسية، ومن ثمَّ تُرجمت الى العربية، ككتاب محمد الرايس (من الصخيرات الى تزمامارت: تذكرة ذهاب وإياب الى الجحيم) وقد ترجمه عبد الحميد جماهيري، وكتاب (تزمامارت: الزنزانة رقم ١٠) لأحمد المرزوقي وترجمه المؤلف نفسه إلى العربية في وقت لاحق ونُشر ضمن مطبوعات (المركز الثقافي العربي).

وقد كُتب علـى غلاف الكتـاب (رواية)؛ وقـد جرت العادة هذه الأيام، بتسمية بعض الكتب الأدبية في السير الذاتية داخل السجون بـ(رواية)، رغم أن الرواية فيما اصطلح البعض على تعريفها «هي القصة القائمة على الأحداث الخيالية لا الواقعية الحقيقة». فربما استخدام مصطلح الرواية قد يكون لأسباب تجارية لا واقعية.

والكتاب لا يصلح لأن يكون مدخلًا لقضية تزمامارات، بل يصلح لأن يكون مُلحقًا؛ لأن المؤلف لم يكن معنياً بشرح أحداث انقلاب الصخيرات في 01 يوليو ١٩٧١م، بل تكلم عن الأحداث وكأن القارئ لديه خلفية عن هذا الحدث. وكذلك المؤلف هنا لم يكن كتابه توثيقياً مَعني في المقام الأول بذكر كل شاردة وواردة مثل كتاب أحمد المرزوقي، بل كان كتاباً أدبياً يتكلم عن أحداث تأريخية فيمزج هذا مع ذاك، فلم يذكر كل الأحداث ولا كل التفاصيل. فالتأملات الأدبية البلاغية أخذت حيزاً قد يزعج القارئ الذي يقرأ بنفس المؤرخ.

”وتكمن أهمية هذا الكتاب -فيما أرى- أنه الكتاب العربي الوحيد الذي يتكلم عن أحداث العنبر «ب» الأشد بؤساً، أما كتاب المرزوقي والرايس فعن أحداث العنبر «أ». فتكاد تكون الشهادة الحية الوحيدة لما حصل في هذا العنبر.“


معتقل تزمامارت

باختصار الكتاب يتحدث عن معتقل تزمامارت الذي أُنشئ على خلفية انقلاب فاشل ضد ملك المغرب في منتصف السبعينيات، من قِبل أفراد وضباط مدرسة أهرمومو العسكرية، الذين دخلوا القصر الملكي والملك يحتفل بعيد ميلاده الثاني والأربعين، وكان لديه ضيوف من أعيان البلاد ودبلوماسيين وكبار رجال الأعمال وبعض المشاهير! فبدأ إطلاق النار من أجل اغتيال الملك وعلى إثر ذلك قتل الكثير من هؤلاء المدعوين، واستطاع الملك في نهاية المطاف أن ينجو بنفسه وأن يقلب الطاولة على الانقلابيين وأن يُفشل انقلابهم، فأدى هذا في نهاية المطاف إلى محاكمات عسكرية أدت إلى إعدام رؤوس الانقلاب وسجن الضباط والجنود، الذي كان أكثرهم لا يعلم بشأن الانقلاب بل أُخبر بأن هنالك مناورة عسكرية، وهذا ما جعل البعض يرمي سلاحه عندما رأى المجزرة تحصل، بل ادعى بعضهم - مثل المرزوقي - أنه أنقذ ولي العهد آنذاك، والذي أصبح ملكاً فيما بعد «محمد السادس»، ولكن إثر تلك الفوضى تعذر فصل المشاركين في إطلاق النار عن الذين امتنعوا عن ذلك، فأخذ الكل بجريرة البعض.

أراد الملك أن يجعل منهم عبرة، فأنشأ لهم سجناً صحراوياً في شرق المغرب، ثم وضعهم فيه وكانت الأوامر من الملك قتلهم ببطئ شديد وجعلهم يعانون أشد المعاناة، فاختفى ذكرهم عن الناس، وأصبح من المحرمات الكلام عنهم في أول الأمر، وبدأوا يتساقطون الواحد تلو الآخر، إلى أن انتهت محنتهم في مطلع التسعينيات.



***

امتاز هذا المعتقل بالظلمة وعدم دخول النور إليه، لذلك عنون المؤلف اسم الكتاب بـ(العتمة)، فكانوا لا يرون النور إلا بعد وفاة أحد السجناء، فيضطر الحراس لإخراجهم من العنبر من أجل الدفن، ولكن توقف الحراس فيما بعد عن إخراجهم للدفن، فانقطع النور تماماً عنهم.

كان الطعام خبزاً يابساً وماء والشاي أو القهوة، التي يقول المؤلف عنها إنها من الممكن أن تكون بولًا! هذا الطعام مع امتداد الوقت أصبح أداة للقتل البطيء، وأدت هذه الظروف إلى نشوء الأمراض نشوءاً طبيعياً بسبب الوضع غير الصحي، بالإضافة إلى تردي الحالة النفسية والذي قاد بعضهم إلى الجنون والوفاة أو الوفاة مباشرةً. لذلك تساقطوا تدريجياً من ٢٢ معتقلاً في العنبر «ب» إلى ٤ ناجين فقط!

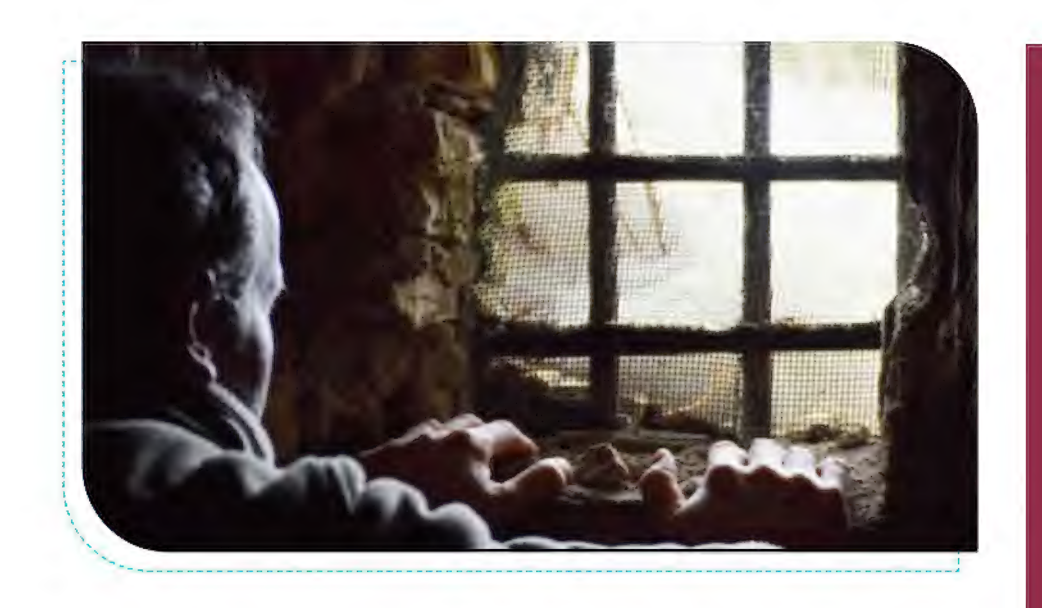
***

الكتاب موضوعي إلى حد كبير، بمعنى أنه ذكر الكثير من الأمور التي قد لا ينبغي ذكرها، والتي فيها إدانة حقيقيةً لنفسه مثلًا، كتسببه في وفاة أحد المعتقلين، وكذلك طرق موت السجناء والتي كان الكثير منها مخزيًا إلى حد كبير، وكذلك الكلام عن والده. فكان سقف المؤلف عالياً وبدا وكأنه لا شيء لديه يتحفظ عليه.

أما مواضيع الكتاب الرئيسية فقد تمثلت بعرض نمط الحياة في السجن قرابة الـ ٢٠ سنة. كيف يقضون وقتهم؟ أثر الطعام والشراب عليهم؟ مَن ماتوا كيف ماتوا؟ شخصيات المعتقلين، كيف كانوا قبل المعتقل ودورهم في المعتقل وكيف استطاع الراوي استغلال وقته وما هي الأمور التي فعلها والتي مدت من عمره ولم يهلك مع الهالكين.

مثلًا تكلم عن شخصية سجين معهم اسمه «عشّار»، ومثل هذه الشخصيات هي التي تجعل السجن سجنين والهم همين، هي الشخصية الحقودة التي لا تراعي ظروف المعتقل ولا ظروف المعتقلين، فتبدأ بإثارة الفتن وتسعير الخلافات والحنق على أي شخص لأي شيء إيجابي يحصل له! ولو كان هذا الشيء تافهاً. هذه الشخصية وإن كانت لئيمة إلا أنها أضفت نوعاً من الفكاهة على السرد.

وتكلم عن نمط حياة جنود مدرسة أهرمومو العسكرية، والتي يظهر من خلالها نوع التنشئة الفاسدة التي ينشئون العسكر عليها؛ والتي تخلو من أي مظهر من مظاهر الدين، إلا ما كان ذاتياً. فلم يكن هؤلاء الجنود من مرتادي المساجد بل كانوا من مرتادي بيوت الدعارة، وكانوا لا يعرفون شيئاً عن الدين بل كان بعضهم يشتم الدين، وبعض هؤلاء الجنود لم يحفظ الفاتحة إلا في المعتقل، وليته حفظها بسرعة بل يقول المؤلف إنه حفظها بعد أشهر من المحاولات!



وتكلم المؤلف عن الجنون الذي بدأ يُصيب المعتقلين وهم ليسوا قلة بالمناسبة، وبدأ يضع فلسفة تُعنى بمقاومة الجنون في المعتقل، وهي عدم الاتكاء على غريزة البقاء من أجل النجاة؛ بل بالتخلي عن أي تعلق بالخارج يؤدي إلى تقطع المعتقل تدريجياً لهفةً وشوقاً تؤديان في النهاية إلى إصابته بالإحباط وخيبة العمل، والتي هي القنطرة إلى الجنون ثم الموت بعدها. فهو يقول: «أنا قد نسيت نفسي واستطعت أن أتجاوز ذكرياتي فلم تبقَ تلك الذكريات تعذبني في كل حين إلى أن تقضي عليّ من الداخل» .

وفي بسط لهذه الفلسفة تذكرت رجلين من رجالات الإسلام، أولهما الشيخ عمر عبد الرحمن -تقبله الله- وهو يذكر أسباب مقاومته للجنون أو الأمراض العقلية كما في وصيته: (ولولا تلاوة القرآن؛ لمسني كثير من الأمراض النفسية والعقلية)، فلحفظ القرآن منافع متعددة، وهذه أحدها. وقد حدثت أن أحد المشايخ المحدثين المعروفين قد سُحر في السجن، ورمي في الانفرادي حتى لا يساعده أحد، ولأنه كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب لم يحتج إلى أحد واستطاع أن يعالج نفسه بنفسه. ولو لم يكن حافظاً لتردت أحواله من سيء إلى أسوء.

والشخص الثاني وهو الشيخ المحدث المعروف سليمان العلوان وهو يقول في شريط [الثبات على الحق]: (بعض الناس إذا سُجن قال: ربي أخرجني! غلط بل قل: ربي ثبتني، فكم شخص سُجن وخرج صار منحلًا عن عقيدته منحرفًا ضالًا زنديقًا أو فاسقًا أو عارًا على أهل الحق، سَلِ الله الثبات ولا حرج أن تسأل بعد ذلك المخرج).

أحياناً الرغبة في الخروج من المعتقل تكون طاغية إلى درجة الوقوع في الميكافيلية التي تقوم على أن الغاية تبرر الوسيلة، فتكون فاتورة خروجه من المعتقل هو التخلي عن الحق هذا إن لم يكن ضده. وفي هذه الحالة كما نرى أن الرغبة الجامحة في الخروج وعدم التكيف مع هذا الواقع الجديد، أدت إلى نفاد صبر الكثيرين، مما أدى الى اضطراب عقولهم وجنونهم ووفاتهم في النهاية.

كذلك أظهر المؤلف أن الإنسان حتى لو جرد من الأدوات التي يحتاجها للمعرفة، فإن بطول التأمل والتجربة في ظروف بدائية قد تجعله يصل إلى بعض هذه المعارف التي يحتاجها. وبما أن الحاجة أم الاختراع أو كما قال المؤلف: (فقد اعتبرت نفسي كمن أُعيد إلى عصر الكهوف فينبغي عليه أن يعاود اختراع كل شيء بأدواتٍ أقل من قليلة).

فأبسط الأشياء يُصنع منها أمور مهمة، فكانت قطعة الحديدة الموجودة في طرف عصا المكنسة هي أداة الحلاقة لهم، فقد انتزعوها من المكنسة وجعلوها مسطحة وسنوها بواسطة حجر خشن ثم حلقوا لحاهم بها!

وأما التأمل الذي جعلهم يعرفون أحوال الخارج، فهو استقرار عصفور بقرب عنبرهم، ثم لاحظوا تغريداته إن كانت على نسق معين فهي تعني أن هذا الشيء قد حصل، فأصبحوا يعرفون موعد تبديل المناوبة وأحوال الطقس كل هذا بعد تأملات شهور في نسق تغريدة العصفور.

وكذا يعرفون علامات الموت من خلال صوت توعك أحدهم، أو صوت أحد الطيور الذي أسموه بالخَبَل. وهذا ذكرني بقصة ابن طفيل (حي بن يقظان) والتي عاش فيها الإنسان البدائي في جزيرة نائية من خلال التجارب والتأمل استطاع أن يطوع الكثير من الأشياء البدائية لصالحه.



وثم تكلم صاحب القصة عن أمر أنا أتفق معه فيه، وهو قوله: (اختلط علي الأمر. قتل الملك! ولكن لصالح من؟ لكي يستبدل بطغمة عسكرية؟ جنرالات كولونيلات، يتقاسمون السلطة وثروة البلاد؟ وبمرور الوقت، فكرت ملياً: لحسن الحظ أننا أخفقنا. أو بالأحرى: لحسن الحظ أنهم أخفقوا! فمن يدري قدر المرارات التي كنا سنتجرعها على يدِ دكتاتورية عسكرية أركانها القمندان أو المعاون عطا! إني أعرفهم جيداً، وأعرف جيداً ما أقول!).

وهذا لا يعني بحال أن النظم الملكية الدكتاتورية نظم مثالية بل فيها من الطغيان والاستبداد والعمالة ما فيها، إلا أنها أهون من النظم العسكرية، بل البعض أصبح يترحم على النظم الملكية عندما جرب جمهوريات العسكر!

كما قال أحمد رائف في كتابه (البوابة السوداء - ص٢٥٢): (وفي الحقيقة بدأت مأساة الإخوان بضرب يوسف القرش في قصر عابدين حيث كان يقيم

الخديوي إسماعيل رحمه الله وطيب ثراه هو وآباؤه وأبناؤه الكرام البررة، إذا قارنا طغيانهم بطغيان من جاءوا بعدهم).

كما أن الإشكاليات الموجودة في النظم الملكية ترى العسكر يتكئون عليها لتبرير انقلاباتهم، من ذلك صور البذخ وسوء التدبير الموجود لدى الأسر الحاكمة، ولكن بمجرد الانقلاب تراهم يمارسون ذات الفعل، ويصدق المثل القائل: كأنك يا أبو زيد ما غزيت!

" يتكلم حبيب سويدية صاحب كتاب (الحرب القذرة - ص٤٤) مثلًا عن نظام الجنرالات في الجزائر فيقول: (وفي تلك الفترة - فترة الشاذلي بن جديد - كانت تُقلع طائرات عسكرية بصورة منتظمة من بوفارق، لحمل زوجات كبار المسؤولين ومستخدميهم إلى باريس وبالما ومدريد وروما من أجل التسوق .. ممارسات مستمرة حتى اليوم!). "

فهذا الأسلوب لا يختلف عن نمط العوائل البرجوازية في النظم الملكية.

دراسة جميع هذه الظواهر، كما دراسة تاريخ عالمنا العربي؛ تجعلنا نزداد بصيرة بأن مشكلة النظم الملكية المستبدة لا تُعالج بالجمهورية العسكرية، وهذا كمن يحاول أن يزيل النجاسة فيزيدها نجسًا. ويزيد الطين بلة.

ختاماً: مثلت أقصوصة (تلك العتمة الباهرة) أنموذجاً لصراع الجبابرة على الحكم، ومدى أثره على الخاسر في هذا الصراع، أظهر نموذجاً حسياً للإنسان المقاوم بأبسط الأدوات بدائية الموت ومقدماته، أظهر كيف أن الإنسان ذلك الظاهرة المعجزة التي لا تقولب في أطر محددة سلفًا كما قال الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)، وأظهرت جزءًا ظل مخفياً من تاريخ المغرب السياسي، ظل طي الكتمان لفترة طويلة، وكان هذا الكتاب من الشهادات القلة القليلة حول ذلك الحدث.

يستفيد المسلم من هذا الحدث الكثير من الأمور:

- «المُلك عقيم»، فالرجل يقتل أباه أو أخاه على الكرسي، فكيف بالغريب الأجنبي، الذي من أطراف البلاد ولا قيمة معنوية له ولن يثأر له أحد! فأي صراع على السلطة إن دخله الشخص فليتوقع أن يحصل له مثل ما حصل للمعتقلين في سجن تازمامارت. أي صراع وجودي يستنفذ كل طرف طاقته في إفناء الطرف الآخر، وإن تمكن منه لن يرحمه.



- أن النظم الجمهورية العسكرية، ليست أحسن حال من النظم الملكية، بل هي أسوأ، وأن أغلب التجارب -إن لم تكن كلها- التي رفع العسكر فيها شعارات نزيهة في مواجهة الملكية لم يطبقوها عندما وصلوا الحكم؛ بل صار الحال أسوأ من قبل، وقد قيل: «المجرب لا يجرب».

- أن الصمود في المعتقل وفي ظل الظروف الصعبة يحتاج إلى أساليب وأدوات جزء كبير منها يحصلها الشخص قبل البلاء؛ وتحتاج قبل ذلك كله تعويد النفس على الصبر وطول النفس، وقبل ذلك كله التقرب إلى الله وتحويل المعتقل إلى فرصة مثالية لتصليح النفس ومكان للعبادة، فكانت هذه العبادات كما أظهر صاحب القصة سببًا في ثبات عدد غير قليل حتى ممن ماتوا، على الأقل ماتوا بسبب أمراضهم ولم يموتوا بسبب فقدانهم لعقولهم.

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) ولكن أحياناً يؤيد هذا الدين بالرجل الكافر! وهذا واضح في القرآن والسنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ

لَرَجَمْنَاكَ) فالرهط هنا من حموا شعيباً من الرجم، وهؤلاء الرهط هم من أهل الإشراك كما قال الشنقيطي في تفسير أضواء البيان: (بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه شعيباً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم كفار).

وكذلك حماية أبي طالب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو مشرك ومات على الشرك. ولو رأيت قصة (تلك العتمة الباهرة) ترى أن من كان سببًا في التخفيف من كربتهم كان حارساً تعاطف معهم حميةً؛ لأن أحد المعتقلين من نفس قبيلته، فأصبح يهرب الرسائل التي يستخدمها المعتقلون ويوضحون فيها أحوالهم وظروف سجنهم؛ فيوصلها أهلهم إلى المنظمات الدولية التي تشحن حملات ممنهجة ضد حكومة المغرب، وأدى هذا في النهاية إلى تخفيف الضغط وتحسن الأحوال.

فلا تستغرب أيها المسلم في سجنك إن وجدت من يريد نصرتك من الطرف المعادي لقاسم مشترك بينكما كالقبيلة أو العشيرة، ولا يستنكف الشخص عن استغلال هذه الفرص بحجّة أن الطرف الآخر عدو، بل يستغلها ويستخدمها لصالحه كما استخدمها الأنبياء لصالحهم من قبلهم.

إن أصحـــاب القضية الإسلامية فـــي المغرب وغيرها من أقطار العالم العربي، لهم تجارب تقارب بشاعتها ما حصل في (تلك العتمة الباهرة)، وعليهم أن يبقوا قضاياهم ويخترقوا سياج (الروايات) للوصول إلى أكبر عدد من القراء، فالكتب التأريخية لا يقرأها إلا المهتمون بالتأريخ، ولكن الروايات التأريخية يقرأها قراء الروايات ومحبو التأريخ، فأنت تستهدف هنا شريحتين، خصوصاً أن جيل الشباب اليوم يَغلب عليه قراءة الرواية.

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



العرب في تسع سنين (٢)

كرم الحفيان

مع بداية عام ٢٠٢٠ م، نواصل ما بدأناه من استكشاف وعرض التحولات الاجتماعية الكبرى الناتجة عن الثورة العربية المستمرة منذ انفجارها نهاية ٢٠١٠ م، وقبل الشروع بمحاور هذه الورقة، يحسن التذكير بالتغيرات الثلاثة الأولى التي ناقشتهم المقالة السابقة وهي على التوالي:

أولًا: "البداوة الحديثة" ومعناها: تحول حمل السلاح وإتقان القتال إلى سجية عند شرائح "مدنية" واسعة في بلاد الثورات المسلحة كسورية وليبيا والعراق وغيرها، والتأقلم مع ظروف الحياة الصعبة المتسمة بالتهجير والتنقل الدائم والاقتصارعلى الأساسيات، وتوسع المخيمات.

ثانيًا: تعرية العدو الاستراتيجي الأخطر والأقرب للشعوب العربية وهي الجيوش العربية، وهنا تحية واجبة لأصحاب البصيرة مطلقي شعار "يسقط يسقط حكم العسكر" فقد وضعوا أيديهم على أصل الداء، وشخصوا أفضل دواء لهذه المؤسسات السرطانية الناهشة لجسد الأمة.

ثالثاً: تراجع الفردانية كنمط حياة للإنسان العربي، وعودة الروح الجماعية (ولو جزئياً) المتمثلة بالعصبيات القبائلية والمناطقية، مع ما يشوبها من تفرق وتناحر، في انتظار بروز قيادات قوية أمينة من رحم الثورة مجمعة للثوار، مع مرور الوقت ونضوج التجربة.

رابعاً: نشأة جيل في غياب تسلط الطواغيت

وإذا ما انتقلنا للتحول الرابع المؤثر والعميق في التركيبة الاجتماعية للعرب، والتي لا يُتطرق إعلاميًا إلا لجانب واحد فيها وهو الصعوبات النفسية والتعليمية التي تواجه الأطفال و"المراهقين" في مناطق الثورات والحروب، وهو جانب مهم جدير بالدراسة والعمل الجاد وتضافر الجهود للخروج بحلول مناسبة له، إلا أنه غالباً ما يُنسى أو يُغفل الجانب الآخر الأكثر الأهمية في نظر الكاتب، ألا وهو: نشأة جيل في غياب سلطة الطاغوت شديدة المركزية، وانحلال ما وصفها عبدالله عزام بـ"عقدة المخابرات" والأجهزة الأمنية، تلك التي شوهت أجيال كاملة ومسخت فطر شعوب كانت تغيث الملهوف، ولا تنام على الضيم، وتتوارث الشجاعة وغيرها من الأخلاق النبيلة، وما أبلغ عبارات ابن خلدون التالية: "وأما إذا كانت المَلَكَةُ وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذٌ من سورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة... وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية، لأن وقوع العقاب به (ولم يدافع عن نفسه) يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك".



أما الجيل الجديد الذي نشأ في ظل الثورة العربية، وشبّ في مناطق ومدن حُررت من الأنظمة القمعية، فأول ما وعي عليه هو مشهد أهله وأقربائه وشعبه وهم ينقضون على الجلادين، ويهدمون مراكز القهر والتعذيب على رؤوس أصحابها، ويقتلون ويأسرون أكابر مجرميها، ثم يهزمون جيوشاً نظامية ويحررون غالب البلاد رغم القوة الجوية للعدو، هذه الدروس التربوية العملية في عمر النشأة أنتجت جيلاً من الشباب اليافع، لم يتشرب الذل ولم يتعايش مع الطغيان، "والإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه"[1] (وهؤلاء الفتية الذين تتراوح أعمارهم الآن بين خمسة عشر وعشرين عاماً يشكلون جزءاً أساسياً وقوة بشرية ضاربة في مقاومة قوى الاحتلال الإقليمية والعالمية التي هبت لنجدة الطغاة، وسيخزيها الله بحوله وقوته)[1].

والملاحظ، أن المناطق التي تقاسمت الإدارة فيها عدة جماعات وحركات ثورية مختلفة في آن واحد، كان لها دور في التوجه لتثبيت هذا التغير النفسي الجذري، بصورة أكبر من المناطق الخاضعة لتنظيم أو حركة واحدة، ولسنا هنا بصدد تقييم ومناقشة إيجابيات وسلبيات كل نموذج، ولكن الحديث المحدد هنا هو عن التأثير الاجتماعي النفسي الحاصل.

---

(١) مقدمة ابن خلدون

خامساً: فشل نظرية تأديب الشعوب بمصير العراق وسورية

برغم الإبادة الممنهجة بكافة أنواع الأسلحة (باستثناء النووية) لمدن ومناطق الثورة السورية والمقاومة العراقية، عبر الطيران الروسي في سورية والأمريكي في العراق وشرق سورية، هذا القصف أنتج خراباً هائلاً في محافظات ومدن ومناطق كبيرة وهامة كحلب وحمص وغوطتي دمشق ودير الزور والرقة والموصل ونينوى والأنبار وصلاح الدين وغيرهم، ولولا القصف المتواصل من القوى العظمى على مدار سنين ما استطاعت الجيوش المحلية المهلهلة (التي مزقتها الثورات وحولتها لميليشيات) والميليشيات الطائفية التابعة لإيران دخولها (والمرجح عند توقف هذا الغطاء الجوي وسيتوقف عاجلاً أم آجلاً تساقط المناطق المحتلة من الجيوش، بشرط ثبات الثوار المجاهدين لذلك الحين وحفاظهم على سلاحهم وعلى بقعة جغرافية معقولة).

وفي خضم هذه الإبادة الجماعية للإنسان والعمران، وما أسفر عنها من تهجير ولجوء لدول الجوار وغيرها، بدأت الآلة الإعلامية الرسمية بترهيب الشعوب والتلويح بمصير العراق وسورية عند أي معارضة أو احتجاج. هنا ظنت القوى العالمية وطغاتها المحليون أن الشعوب العربية الأخرى قد تم "تربيتها".

وإذا بشمس الثورة تشرق مجدداً من المغرب بعد ٩ سنين من الموجة الأولى، وأين؟ في أكبر البلاد العربية جغرافياً: الجزائر، صاحبة التاريخ الجهادي المميز، والنفس الطويل في الثورة ضد المستعمر، وقيمة الحراك الجزائري في هذا التوقيت تعود إلى الثقل البشري، والرمزية الكبيرة لجهاد الشعب الجزائري في وجدان العرب، وحصانة الجزائريين النسبية المتوقعة من ألاعيب المخابرات وثغرات الثورات، بعد تجربتهم في التسعينيات، التي شهدت جميع الأحداث من انتخابات وانقلاب ومقاومة مسلحة واختراقات وانحرافات، ووجهة الحراك الثوري الحالي وزخمه ورفضه للاعتراف بالرئيس الجديد عبد المجيد تبون أمر قد يعزز هذا التصور.



ثم بدأت آلية كرة الثلج الثورية تمتد للسودان ثالث أكبر بلد عربي، ثم لبنان، لتصل في آخر حلقاتها إلى العراق نفسه! وهنا بدأ الدعابات تخرج بتحذير العراقيين من الثورة كي لا يصبح مصيرهم كال...العراق!

والإضافة الكبرى للثورة الجديدة في العراق، هي ليست فقط صعق غرفة عمليات وحلف الثورة المضادة، وهدم أهم سردية في بروباغاندا فشل الثورات وهزيمة الثوار، إنما انضمام فئات وشرائح مجتمعية جديدة لثورة الشعوب العربية وهم الشيعة العرب، الذين ضاقوا ذرعاً بالهيمنة الإيرانية وأحزابها على العراق، ولهذا الموضوع تفصيل أكبر في المقالة القادمة.

سادساً: وحدة الشعور والأمل بين الشعوب الثائرة

بعد عقودٍ من زرع الطغاة للعداوات والحزازات والعزلة الشعورية والمادية بين الشعوب العربية، جمعت رحم الثورة الشتات العربي من جديد وقربت المسافات ووحدت الغايات وجددت الآمال، ورأينا في الموجة الأولى التفاعل المستمر والتضامن الكبير بين أبناء الثورات، فهذه مصر تفرح لفرح تونس وتقتدي بها في انطلاقة ثورتها، ثم تمد يد العون لجارتها ليبيا، وتفتح خطوط إمداد شعبية لها، ثم رأينا كيف تحولت الثورة السورية لقضية مركزية جديدة وقبلة ثورية ليس فقط عربية، بل عالمية.

ومع تراجع الثورات بشكل عام، وطول أمدها، وتكالب الأعداء، ونجاح الثورة المضادة في مصر وغيرها، وما تلا ذلك من عمل إعلامي دؤوب على تشويه الثورات والتركيز على أخطائها وإخفاقاتها واختراقاتها، في محاولة لثنى الناس وتثبيطهم، خبت اللُحمة الشعورية، وعاد كل شعب لشؤونه، هكذا بدا المشهد.

بيد أنه مع الموجة الثورية الجديدة في ٢٠١٩ ، هز هتاف الثوار الهادر في الجزائر بـ "لا إله إلا الله محمد رسول الله والسيسي عدو الله" كل القناعات القائلة بعدم اكتراث كل شعب إلا بقضاياه الداخلية، ثم انتشر هذا الهتاف انتشار النار في الهشيم في ساحات الثورات والاحتجاجات وحتى في الفعاليات الرياضية وملاعب كرة القدم.

شيءُ آخر كان حاضراً بقوة في وجدان ثوار الموجة الثانية وساحاتها الرئيسية: علم الثورة السورية، وكأنه أصبح تقليداً متبعاً مع كل ثورة جديدة، لعن الثورة المضادة المتمثلة في صورة السيسي، وتصورها كعدو لله، والتمسك برسالة الثورات وعدم إسقاط رايتها مهما كانت التضحيات والمؤامرات والأحلاف المضادة، والصبرعلى الجهاد حتى لو تدخلت أمريكا وروسيا معاً كما حصل في سورية.

خاتمة

إذن دخلت الثورة العربية عامها العاشر، وقد جددت دمائها واستعادت زخمها ونشاطها بانضمام الجزائر والسودان ولبنان والعراق لملحمة الثورة الكبرى، وظهرت من جديد اللحمة وصلة الرحم الثورية بين الأشقاء العرب، فالجميع يهتف ويرفع علم درة الثورات الثورة السورية ويصف السيسي واجهة الثورة المضادة بعدو الله، وقد نشأ في البقاع الثورية المحررة جيلٌ من الفتية لم يذوقوا الذل قط، ولم يشبوا على ثقافة المشي بجوار الجدران، فقد هدمت جميع الجدران والأسوار والحواجز المعنوية والمادية، وها هم يقفون كأجدادهم الصحابة والفاتحين شامخين كالنخل، ويخوضون معركة التحرير الكبرى بقلوب جسورة، على أمل أن يكون المستقبل لهم ولأمتهم العربية والإسلامية إن اتقوا وأخذوا بجميع الأسباب الايمانية والدنيوية.



ومع كتابة هذه السطورالأخيرة، وبدء الحملة الروسية الرابعة على مدينة إدلب السورية، وُجد مصحفٌ وقد تضرر من القصف وهو مفتوحٌ على آية "كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون". فكتب الشاعر السوري مناف بعاج قصيدة أحببت أن أشاركها مع الإخوة القراء:

كتب القتال عليكم فأفيقوا ... إن القتال إلى السلام طريق
لا تركنوا للسلم إن قبوله ... ذلٌ وعهد دعيّهِ مخروق
منذ ارتضينا بالسلام تطاول ال.. ... الحاخام في الساحات والبطريق
لا يرقبون بمؤمنٍ (إلا) ولا... ... ذممٌ لهم.. فضميرهم مسروق
الطائرات شواظها متناثرُ ... والراجمات سلامهن حريق
والعالم المحموم ينظر ساكتاً ... فرعوده ليست لهم بروق

أحوال النية في الجهاد

مختصر من كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، لابن النحاس

اختصار: أحمد نجدي



ولما كان سبب النجاة العظمى ومجاورة الرب الكريم في دار السرور والنعيم، إنما يحصل بالإخلاص في العبادة، ووجدنا أن الأعمال كلها وإن تنوعت =فإنه إذا صدر منها شيء مشوبًا بالرياء والنفاق، أمكن أن يصدر منها في وقت آخر على وجه الإخلاص والوفاق، أو يتوب الله عليه ما دام في الأجل مهلة، بخلاف من ذهبت نفسه في القتال، إذ ليس له إلا رضا ذي الجلال، أو النكال الشديد والوبال، ومن خسر نفسه لم يبق له نفس أخرى يربحها! فقد وجب تشمير ساعد المساعدة في تحقيق النية في الجهاد وأقسامها؛ فنذكر منها ما هو الغالب وجودًا ويقاس عليه ما قد يقع:

١ من يقصد بجهاده وجه الله سبحانه لاستحقاقه هذه العبادة وأمره بها من غير التفات عنده إلى جزاء عليها في الآخرة، وهذا عزيز نادر الإمكان.

٢ من يحمله على الجهاد الغيرة على الإسلام والحرص على إعلاء كلمة الله تعالى، وإذلال كلمة الكفر وأهلها.

» وهاتان النيتان لا شك في صحتهما.

٣ من يقصد بجهاده الجنة وثوابها وكواعبها وأترابها والنجاة من النار وعقابها، من غير تصور لغير ذلك، هذا هو الأغلب وجودًا.

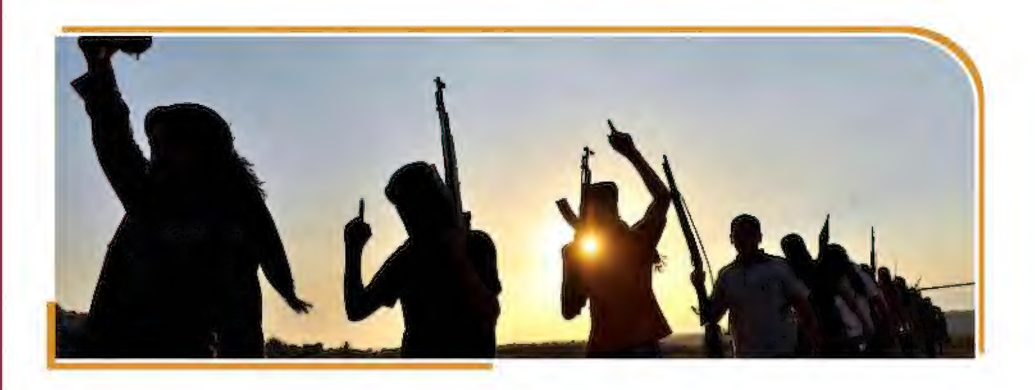
والظاهر الصحيح أن هذا القصد كاف في نيلها وأن صاحبها من الفائزين بجنات النعيم، ومما يدل على ذلك ترغيب الله في الجنة لمن جاهد في سبيله كقوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة»، وكذلك حض رسول الله على الجهاد ووعد عليه بالجنة كقوله: «من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة». والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة.

واعلم أن هذه النيات الثلاث كافيات في نيل المقصود غير أن هذه النية الأخيرة كالقشر بالنسبة إلى الأولى الثانية.

٤ من إذا دهمه القتال يقاتل مقبلاً غير مدبر ليس له نية البتة غير الدفع عن نفسه، وهذا قريب من أصحاب النية الثالثة وليس مثلهم، وهو شهيد لأن من دفع عن نفسه قطاع الطريق فقتلوه كان من الشهداء، فكيف لا يكون شهيداً من قُتل بسيوف الأعداء؟

٥ من يخرج إلى الجهاد مكثراً سواد المجاهدين ليس له نية أن يَقتل ولا يُقتل، وهذا إذا قُتل شهيد، لأن من كثّر سواد قوم فهو منهم؛ فعن أنس بن

مالك، قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** «الشهداء ثلاثة: رجل خرج بنفسه وماله في سبيل الله لا يريد أن يقاتل ولا يُقتل، يكثر سواد المسلمين، فإن مات أو قُتل غفرت له ذنوبه كلها...».



٦ من يجاهد ونيته وجه الله تعالى ونيل الغنيمة جميعًا، ولو انفرد قصد الجهاد عنده لكان كفيلا بإنهاض القدرة على الجهاد، بحيث لو دعي إلى غزو طائفة فقراء ليس لهم ما يغنم = لما أقعده عدم وجود ما يغنم عن الجهاد في سبيل الله بل كان يجاهد، ولو دُعي إلى غزو طائفتين إحداهما فقيرة والأخرى غنية لرغب في جهاد الأغنياء رجاءَ الغنيمة، فذهب بعض السلف إلى أن هذه النية صحيحة؛ فقد قال الغزالي رحمه الله: «العدل أن يقال: إن كان الباعث الأصلي هو إعلاء كلمة الله وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية بحيث لو لم تكن غنيمة لما ترك الغزو فإن هذا لا يحبط به الثواب، نعم لا يساوي ثوابه ثوابَ من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا».

٧ من يجاهد ونيته تحصيل عرض الدنيا من غير التفات إلى قصد نوع من العبادة، بحيث لو عرض عليه غزو طائفة من الكفار ليس لهم ما يغنم، أو علِم أن يُمنع من الغنيمة = لم يغز، فهذا إذا قتل ليس بشهيد، وإن كان حكمه في الظاهر حكم الشهداء، وليس له أجر البتة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم لما سُئل عمن يريد الجهاد وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال: «لا أجر له».

٨ من غزا رياءً وسمعة وافتخارًا ليقال: هو غازٍ أو شجاع أو نحو ذلك، ولم يخطر بباله قصد التقرب إلى الله تعالى البتة، بحيث لو خلا من الاطلاع من يتوقع الثناء منه لما حمله قصد القربة على الجهاد، فإن هذا إذا قتل ليس بشهيد عند الله بلا خلاف، وهو أحد الثلاثة الذين تُسعر النار بهم يوم القيامة قبل الخلائق.



٩ من غزا ونيته الأجر وأن يُذكر أيضًا بالغزو والشجاعة والإقدام، وكان بحيث لو لم وجد قتالًا بين من لا يعرفه ولا يتوقع منه مدحا= لم يقاتل، ولو وجد قطاع طريق غير كفار لم تحمله رؤية الناس على قتالهم طلبًا للمحمدة وحدها، فهذا أيضًا ليس بشهيد في الأجر وإن كان حكمه في الظاهر حكم الشهداء.

١٠ من غزا ليُقتل فيستريح مما هو فيه من ضعف مؤلم، أو دَين لازم، أو فقر ملازم، أو شر يتوقعه، ولم يخطر بباله التقرب إلى الله ولا إعلاء كلمته، وكان بحيث لو عرض عليه قتل قطاع الطريق له أو موت بطاعون لما رغب في ذلك، فهذا مما للنظر فيه مجال؛ فيحتمل أن يقال: إنه شهيد لكونه لم يسمح بنفسه إلا في هذا الوجه دون غيره مما يدل على قصد باطن في التقرب إلى الله تعالى وعلى إيمان وتصديق بما جاء عن الله ورسوله في ثواب من قتله الكفار شهيدا، وهذا الاحتمال أقرب ولكنه لا يلتحق بالمخلصين ولا يلحق شأن الشهداء الأولين.

مادة حصرية

مذكرات الشيخ رفاعي طه (٢٢)



من مؤسسي الجماعة الإسلامية المصرية

سجلها عنه وحررها:
محمد إلهامي

بلغ التحرش في جامعة أسيوط حدًّا فظيعا، وكان العميد يؤيد ذلك

- استطعنا ولأول مرة أن نلزم الجامعة بالفصل بين الطلاب والطالبات
- لم يكن انفصالنا نحن والإخوان انفصالا فكريا أو علميا، إنما هي خلافات إدارية
- الفكرة الجامعة بين مؤسسي الجماعة الإسلامية معارضة النظام المصري الفاسد الخائن

لمطالعة الحلقات السابقة اضغط هنا

إذا تبين لنا هذا الحال الذي ذكرناه في الحلقات السابقة- في خريطة التيار الإسلامي داخل جامعة أسيوط، فسيكون علينا أن نتابع التمايز والتكون التدريجي لأفكار الجماعة الإسلامية التي استقلت بهذا الاسم عن الإخوان المسلمين في جامعة أسيوط، وصارت تعبيرا عن تيار بدأ الدعوة ولم تستطع الجماعة احتواءه حتى وقع الانشقاق الذي ذكرنا قصته.

لقد ذكرت أننا لم نكن أصحاب رؤية كلية جامعة، إنما هي أفكار التدين البسيطة الأولى التي تجمع الشباب المسلم الغيور على دينه، ومن هنا كان تكوُّن أفكارنا في الجماعة الإسلامية وليد المناقشات الجانبية بيننا، لم نعقد -مثلا- مؤتمرا أو مخيما أو ندوة جامعة لنسأل أنفسنا من نحن؟ وماذا نريد؟ وكيف سنصل إليه؟.. تلك الأسئلة الكبيرة العميقة التي يبدأ الآن بها بعض الشباب جلساتهم البسيطة، فيختلفون عليها فينفضون قبل أن يعملوا شيئا!!.. كان الأمر لدينا بسيطا، نحن قوم عاملون عمليون، تحركنا تلك الأفكار البسيطة الأولى، ثم تأتي الحركة بالتكون التدريجي للأفكار. وهكذا، وفي أروقة الحوارات الجانبية بيني وبين عاصم أو بين كرم وبين حمدي أو بين آخرين وُلِدت أفكار الجماعة الإسلامية.

ولأن الأفكار لا تولد في الفراغ، ولا في الذهن المحض، فلقد كان واقع الخلاف مع الإخوان في الجامعة صاحب نصيب كبير في هذا التكون الفكري، لقد بدأ التمايز من إخفاق الإخوان في احتوائنا ومن نجاحنا في الاستقلال عنهم، كان الشيخ صلاح هاشم ثم أسامة حافظ وأنا ثم ناجح إبراهيم رموز هذه الحركة الطلابية التي تمايزت عن الإخوان، وظل لها الشعبية الأكبر داخل الجامعة فيما كانت شعبية الإخوان على الأخص في كلية العلوم وجزء من كلية الطب.. وقد بدأ التمايز الفكري بيننا وبينهم من باب العمل، لقد كنا حريصين تماما على صبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية.

مثلا: الإخوان لا يرون إعفاء اللحية واجبا، هم يرونها سنة مؤكدة ويحبذون إعفاءها، ويجيزون حلقها في ظل ظروف التضييق الأمني أو طلبا لمصلحة التأليف الدعوي أو حرصا على عدم حصول التمايز بينهم وبين عموم الناس فذلك عندهم أقرب لدعوتهم وتألفهم واجتذابهم. بينما نحن في الجماعة الإسلامية نرى إعفاء اللحية واجبا، وأنه لا يجوز حلقها بحال، وأنها عنوان التدين والالتزام، وهي أول ما يُطلب في مهمة صبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية.



ليس يعني هذا أن الإخوان جميعا يحلقونها، على العكس، لقد كان الأخ أحمد كمال أمير كلية العلوم، وهو من الإخوان، ذا لحية طويلة جدا، وكان ملتزما بالهدي النبوي الظاهر، وكان رجلا ممتازا نحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدا. بل الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة، وكان حينها رمزا ضخما، كان ساعتها ذا لحية كثة جدا، وكان يرتدي البنطال القصير، ولقد كنت منبهرا به حين تعرفت عليه ورأيت منه هذا الالتزام بالهدي الظاهر.

إذن، لم تكن المشكلة بيننا وبين الإخوان هنا مشكلة علمية أو فكرية، بل كانت مشكلة حركية لو صحّ التعبير، كانت المشكلة في حرصنا على التمايز والظهور الإسلامي العام، وفي حرصهم هم على الذوبان في الناس وتجنب التمايز عنهم حتى لو كان ثمن ذلك التخلي عن سيادة المظهر الإسلامي العام.

ومثل اللحية في هذا مثل الثوب القصير، لقد كان أكثر طلاب الجامعة الإسلامية يذهبون إلى الجامعة وهم يرتدون الجلباب القصير، ولربما ذهب بعضنا بالبذلة الإفرنجية أو البنطلون، لكن عمومنا وأكثرنا يحرصون على هذا الجلباب القصير كجزء من هدف صبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية. ولقد كان بعض الإخوان يفعل هذا أيضا لكن ليس كما كنا نفعل كثرةً وحرصا.

هذه الأمور وإن كانت تبدو بسيطة للغاية وظاهرية جدا إلا أن مردودها الحركي ومغزاها البعيد يؤدي إلى تدعيم آراء فكرية في مسائل أشد عمقا وخطورة، نحن في الجماعة الإسلامية لم نجلس يوما لنناقش مسألة: هل الإخوان يوالون النظام المصري؟ ولم يكن هذا السؤال موضع اتفاق يوما فيما بيننا، إنما تختلف فيه الآراء. لكن، ومع هذا، فإن الخلاف حول اللحية والجلباب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو هذه الأمور يلقي بأثره وظله على هذه المسألة: مسألة الموالاة. لقد كان يسود رأي عام في أوساطنا أن الإخوان يُزَيِّنون نظام السادات، وأنهم يبذلون جهدهم في تثبيط الشباب عن مقاومة هذا النظام.

لست أناقش الآن صحة هذا التصور أو خطئه، إنما أصف ما كان موجودا حينئذ، وإلا فإن الجماعة فيما بعد تحملت العبء الأكبر في مواجهة كامب ديفيد وما تلاها، ولقد كانت مجلة الدعوة -الناطقة بلسان الإخوان- تشن حملة عنيفة جدا على كامب ديفيد، وهو ما أثار غضب السادات حتى صادرها. يجب أن تقال هذه الحقائق الآن. لكن لماذا كنا غافلين وقتها عن هذا ونظن أنهم موالون للنظام؟ لعله كان للسنّ أثر في هذا!

إن الأمر الذي أحرص على تأكيده في تلك المرحلة أن "الجماعة الإسلامية" في تمايزها وانفصالها عن الإخوان المسلمين في ذلك الوقت لم تكن حركة ذات أصول فكرية أو اختيارات فقهية واضحة خالفت بها الإخوان، كان هذا التمايز والانفصال تمايزا حركيا عمليا نشأ من مشكلات إدارية أخفقوا فيها في استيعابنا، وحرصنا فيها على استقلالنا. لا لأنهم يقترفون ما نحن ضده، ولا العكس كذلك.

أتذكر الآن بالفخر والإنجاز أننا كنا أول جامعة في مصر يُصدر رئيسها قرارا يُلزم فيه بالفصل بين الطلاب والطالبات داخل قاعات التدريس، وتحديد أماكن الطلاب وأماكن الطالبات، هذا القرار كان نتيجة جهودنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي كان خلافا حركيا بيننا وبين الإخوان، إذ يرون الصبر عليه لتجنب ما قد يقع من الصدام مع الأمن أو إدارة الجامعة.



بدأت هذه القصة من كلية التجارة، والتي كان المدرج فيها يسع ٧٥٠ طالبا، بينما كان العدد الحقيقي للدفعة ما بين ألفين إلى ألفين وخمسمائة طالب، فلك أن تتخيل كيف يتكدس المدرج بثلاثة أضعاف سعته الطبيعية من الطلاب، ولقد كانت نسبة الطالبات من بينهن تبلغ نصف هذا العدد تقريبا (بين ٤٧% - ٤٩%)، وأولئك جميعا في مرحلة الشباب، ويعلم الجميع ماذا يعني أن يتكدس الشباب والبنات في هذا السن في مكان واحد على هذا النحو، لقد كان التلاصق بين الشباب والبنات أمرًا لا مفرَّ منه لمن يكرهه، فكيف إذا كان هذا مرغوبا فيه مطلوبا بعوامل السن والرغبة.

والأشد من تكدسهم في المدرج هو ما يحصل هذا الجمع في لحظات الخروج والدخول إليه، فإذا كان التحرش الفج يحصل في المدرج فهو يحصل أضعافا عند التزاحم في الخروج والدخول، ولقد شاهدت بنفسي منه مشاهد سيئة منافية للأدب والأخلاق والعفة والدين، لقد وصل الحال إلى مقدمات الزنا على الحقيقة!!

عندئذ، جمعت الإخوة في الجماعة الإسلامية في كل التجارة، أخبرتهم أن هذا الأمر لا يمكن أن يستمر، ولا بد أن يتوقف بأي طريقة، وما من سبيل أمامنا إلا أن نقاومه مهما كلَّف الأمر، واستقر رأينا أول الأمر على أن نذهب لعميد الكلية، لا من باب أننا من الجماعة الإسلامية بل ولا من باب الدين،

وإنما من باب أننا من الصعيد، وهذا أمر لا نقبله في بيئتنا ولا في عائلاتنا ولا في مجتمعنا، وهو ينافي ما عليه الصعيد من الأخلاق والحياء في نسائه والغيرة والنخوة في رجاله.

كان عميد الكلية هو د. مصطفى بهجت، وذهبت إليه مع أخ نسيت اسمه، وصادف ذلك اليوم أن كان أخونا الشيخ صلاح هاشم يزورنا في الكلية وكان ساعتها مجندا فكان حليق اللحية، فذهب ثلاثتنا إلى العميد، وكنتُ المتحدث منهم، فقلت له: يا سعادة العميد، نحن صعايدة كما تعرف، ولقد أرسلنا أهلونا إلى هنا كي نتعلم، ولكن الذي يحدث في الكلية هنا ينافي الأخلاق بل وينافي التعليم نفسه، فأنا شخصيا حين أرى مشاهد التحرش والاختلاط والتصاق الطلاب بالطالبات وما يقع بينهم يذهب تركيزي على الجملة فلا أحسن أن أتعلم، فلهذا نرجوك أن تتصرف فتجعل مقاعد خاصة للطلاب ومقاعد أخرى خاصة بالطالبات، وهذا نفسه سيوفر بعض الأماكن فإن الطلاب إذا تزاحم منهم ٦٠٠ أو ٧٠٠ طالب في مكان يتسع لثلاثمائة فقط لم يكن هناك شيء من الحرج والحساسية فيما بينهم، وكذلك الطالبات إذا تزاحمن معا لم يكن بينهن من الحساسية والحرج شيء، وهذا سيوفر مزيدا من الأماكن.

حاول العميد أخذ الأمر على سبيل المزاح والسخرية، وخلط كلامه ببعض التلميحات الماجنة، وجاءت ردوده على نحو: أنت يا بني ستخرج غدا إلى العمل في شركة أو في مصنع، ستختلط بزميلاتك هناك، فعوِّد نفسك منذ الآن على هذا الاختلاط، ثم ما أدراك أن الاختلاط شر؟ وماذا فيها لو حصل بينك وبين زميلتك تلامس ما، هكذا أو هكذا، وحتى لو أن الأمر تطور بينكما شيئا ما هكذا أو هكذا... إلى آخر هذا الكلام الذي ظاهره مزاح وباطنه خلاعة، ثم كانت خلاصة الكلام: هذا هو نظام الكلية، ونظام الكلية مستقر، ولا أريد فوضى أو بلبلة. وأخرجنا من عنده على هذا.

فكرنا مرة أخرى ثم ذهبنا إلى أستاذ لنا، كان اسمه د. محروس، كان متدينا وذا نزعة صوفية، وكان في الوقت نفسه مؤسسا أو مديرا لجميعة تهتم

بالفتيات في أسيوط، يأتي لهن بمحاضرات دينية ونحو هذا. فذهبنا إليه شاكين وراجين: يا دكتور محروس، ذهبنا للدكتور مصطفى بهجت من أجل كذا فحصل كذا وكذا، فلو أنك ذهبت إليه فكلَّمْتَه لكان خيرا، فأنت أستاذ تخاطب أستاذا، ولعل صدره أن يفتح لك إذا أغلق لنا لكوننا من الطلاب. فوعدنا خيرا، وذهب إليه، وسمع منه ما يكره.



وهكذا فعلنا ما نستطيع من التغيير الناعم اللطيف، التغيير باللسان، فلم ينفع.. فلم يبق إلا التغيير باليد كما في الحديث الشريف!

في ذلك الوقت لم نكن فقهاء، ولم نكن قرأنا مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتوسع كما عرفناه فيما بعد، إنما البسيط الذي لدينا من العلم، حرَّك الكثير الذي فينا من الطاقة والغيرة والهمّ، وساعتها قررنا أن نغير هذا المنكر باليد.

قلت للإخوة: غدا إن شاء الله، نكتب لافتة: هذا المكان مخصص للطلاب، هذا المكان مخصص للطالبات. واستبقنا الطلاب في الصباح، وبدأنا بالدفعة الأولى التي هي حديثة عهد بالجامعة فهي أقرب للاستجابة للتغيير، فجعلنا أبواب المدرج الخلفية للدخول، وأبوابه الأمامية للخروج، وجعلنا بابا في الأمام وبابا في الخلف للطلاب ومثلهما للطالبات. فيمتنع بهذا أن يحدث

تكدس في الدخول والخروج، كما يمتنع أن يحدث اختلاط وتزاحم بين الطلاب والطالبات. وداخل المدرج وضعنا لافتات على قسم فجعلناه خالصا للطلاب وقسم آخر جعلناه خالصا للطالبات، ووضعنا عددا من الكراسي الإضافية في أماكن الفراغ الممكنة لتستوعب ما قد يزيد عن القاعدين في هذه الأقسام.

ولقد التزم الطلاب من تلقاء أنفسهم في أغلب الأحيان، بل إن معظمهم لم يشغل نفسه بسؤال من الذي وضع هذه اللافتة أو رتب هذا النظام، ولقد اقتصر دورنا على أن نقف أمام الأبواب، فإذا جاءت فتاة عند باب الشباب وجهناها لباب الفتيات، وإذا جاء شاب عند باب الفتيات وجهناه لباب الشباب، فكانوا يستجيبون.

كان الموضوع بسيطا، وسريعا أيضا، إلا أنه بقي يُعَكِّر صفوه أولئك الذين يحرصون على الالتصاق والجلوس إلى جوار بعضهم من الشباب والفتيات، أولئك الذين كان الاختلاط على هواهم، أو لعلهم لم يكونوا كذلك وإنما صاروا ضحاياه، فاستناموا لهذا الانحراف بعد استقامة!!.. أما هؤلاء فقد بدأنا معهم جولة أخرى، كنا نذهب إليهم فنوَجِّه الفتاة إلى أن تغادر مكان الشباب إلى مكان الفتيات، ونوجه الشاب إلى مغادرة مكان الفتيات، توجيها رفيقا لطيفا، بعضهم كان يستجيب، وبعضهم كان يعاند ويُصِرّ على موقفه، وكنا نصبر عليهم، كما كنا نراهن على الوقت، وأن يصير الأمر نظاما وعادة، وأن ينكشف أولئك المعاندون، إذ سيجد عشرين طالبا أنفسهم بين خمسمائة من الطالبات، وهي صورة مثيرة للخجل على كل حال.

وكان من فضل الله علينا أن عميد الكلية في هذا الوقت سافر خارج البلد، وظل غائبا خمسة عشر يوما، فلم نجد معارضًا، وتمّ الأمر واستقر دون مشكلات، حتى الأساتذة لم يحفلوا بهذا التغير عموما، وبعضهم كان يثني عليه.

بعد هذه الأيام عاد عميد الكلية، وكانت لديه محاضرة في طلاب السنة الأولى، فتفاجأ من هذا النظام الجديد، ومن هذه الملصقات، فسأل بحنق: من وضع هذه اللافتات؟! من الذي جعلكم تنفصلون هكذا؟!.. لا.. لا، عودوا كما كنتم واختلطوا!!



قال الطلاب: فعله الطلاب الجماعة الإسلامية، كما هو مكتوب على اللافتة، وهم يُشرفون على هذا النظام من أول اليوم إلى آخره!

قال: لا.. لا.. الجماعة الإسلامية لن تفرض إرادتها على جموع الطلاب، ارجعوا كما كنتم واختلطوا!!

لكن الطلاب لم يرجعوا، كأنهم استهجنوا هذا التعبير، ولم أكن حاضرا في السنة الأولى هذا اليوم، إنما كنت مع أخ آخر ننفذ هذا النظام في طلاب السنة الثانية، وبينما هو في جداله مع الطلاب إذ أخبروه أننا نكرر نفس هذا النظام في السنة الثانية، فترك المحاضرة وحضر إلينا هائجا مائجا غاضبا! فتبعه طلاب السنة الأولى.

جاءت إلينا الجموع عند طلاب السنة الثانية، فبلغ العدد في مدرج السنة الثانية ما بين الثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف طالب، وأمر عامل المدرج فأحضر له الميكروفون، تكلم فيه غاضبا: من الذي فعل هذا؟ وظل هكذا خمس دقائق، وكنتُ مع أخي أبو بكر عثمان ومعنا صلاح هاشم أيضا -وكان يزورنا- ساكتين

حتى رآني فتذكرني، فصاح بي: تعال هنا، تعالَ، فذهبت إلى صدر المدرج، وانتظرته لينهي كلامه، فإذا به يسأل ساخطا، وأجيبه هادئا:

ما هذا الذي تفعلون؟

وماذا نفعل؟

هل تسخر مني.. هذا الذي تفعلونه؟!

إنما ننظم أماكن الجلوس لا أكثر

هذا من عمل الإدارة، وليس من عملكم

هذا من عملنا نحن الطلبة، وهو يخصنا ولا يخص إدارة الكلية

وكيف هذا؟!!

•• نحن ننظم أماكن جلوسنا، ولم نتدخل في قضايا التدريس، نحن أدرى بأنفسنا، وماذا يريحنا، وكيف نجلس وكيف ندخل ونخرج.. وإذا جاءتك طالبة عندك في المكتب فأجلسها في المكان الذي تحب على الوجه الذي تريد، أما نحن فقد ارتضينا هذا النظام.. هل شكى لك أحد؟!

أنا عارف لسانك طويل، وأنا سأفصلك من الكلية

وضعت يدي على كتفه قائلا بثبات:

لو أنني أخاف من الفصل ما كنتُ سأفعل!

زاده هذا هياجا وغضبا وصاح: أنزل يدك، أنزل يدك، سأؤدبك، بل سأفصلك، وسأفصلك اليوم.

هنا، ومع اشتداد اللهجة وتأزم الأجواء، هتف صلاح هاشم: الله أكبر!

وإذا بالجمع الهادر تسري فيه طبيعة الجماهير، فهتفوا: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.. إسلامية إسلامية.. وماجت الجموع المتكدسة داخل

المدرج حتى فزع وأخذه الروع وتحير، وتدافع الطلاب من حوله حتى كادت تميد به الأرض، بل كادت تزهق روحه من هذه الاندفاعة المفاجئة، ولكن تدخل بسرعة وبذكاء أخونا أبو بكر عثمان فصرخ في الطلاب: لا يقترب أحد من العميد، سيموت، سيموت.. ومع صرخته الحازمة كأن الناس انتبهت فانفلقت عنه، فنادى أبو بكر بعض إخوانه بسرعة فكَوَّنوا ما يشبه السياج أو السوار حول العميد حتى أخرجوه من المدرج.



أمسكت بالميكروفون وخطبتُ في الطلاب: لقد حاولنا بقدر الإمكان أن ننظم أحوالنا بدون معاندة وبدون مشقة، والأمر سار فعلا على نحو سلس وبغير مشكلات، لكن يبدو أن العميد مُصِرٌّ على موقفه، ومُصَمِّمٌ على تفجير المشكلات، وبالتالي فقد قررنا أن ندخل في إضراب عن الدراسة إلى أن يتم إقرار هذا النظام الجديد بشكل رسمي!

وعزمتُ على إبلاغ بقية إخواني بهذا الأمر الذي طرأ علي منفردا، كي نغلق كلية التجارة وكلية الصيدلة وكلية الهندسة، وتلك هي الكليات الموجودة في الفرع القديم للجامعة، ثم سنطلب من إخواننا تعطيل الدراسة في الجزء الآخر من الجامعة الذي كان يُطلق عليه "الجامعة الجديدة"، وخرجنا من المدرج نذيع هذا الخبر بين الطلاب الذين خرجوا من المدرجات ومن السكاشن، وتجمعنا في فناء الكلية، وخطبتُ فيهم: نحن مستمرون في هذا الاعتصام حتى يتحقق مطلبنا، وتبادل الإخوة من الجماعة الإسلامية الخطب في الطلاب.

لم ينزعج إخوة الجماعة الإسلامية من انفرادي بهذا القرار، أو وصول الأمر إلى هذه النقطة الحرجة، بل كانوا متحمسين جدا، وبينما نحن كذلك إذ جاءنا رجل من قسم "رعاية الطلاب" اسمه المناديلي، يخبرني أن نائب رئيس الجامعة د. عبد الرازق حسن يطلبك إلى مكتبه، فوقفتُ بين الطلاب، وأعلنت فيهم أني ذاهب إلى نائب رئيس الجامعة، ولكننا على العهد: لن ينفض هذا الجمع حتى يُقَرَّ هذا النظام رسميا.

ذهبت ومعي أخي (الدكتور فيما بعد) السيد العربي إلى د. عبد الرازق حسن:

ما هذا الذي تفعلون؟

لا داعي للسؤال، فأنت تعرف.

أعرف؟!.. أعرف ماذا؟

ألم يخبرك د. مصطفى بهجت؟

لا، لم يخبرني بشيء!

فوجئنا أنه لا علم عنده بالأمر، فقصصنا عليه القصص، فتفاجأ، ثم قال مندهشا: هذا الاعتصام من أجل تنظيم مكان للبنات ومكان للأولاد؟

نعم، وهذا ما رضيه الطلاب أنفسهم، ولم يشتكِ أحدهم إلى د. مصطفى بهجت أو غيره، ولن نتراجع عن الاعتصام حتى يتم إقرار النظام رسميا!
خلاص، تم إقراره رسميا.

لا، الأمر ليس بالكلمات، ونحن لا نُخْدَع، والمسألة لا تقتصر على المدرجات بل على السكاشن أيضا.

ماذا؟ سكاشن؟!.. لا، لا نستطيع، هذه لا يمكن تغييرها الآن.

إذن، الطلاب لن تنصرف من مكانها ولن ينفض هذا الاعتصام حتى يتحقق هذا المطلب، إلا لو أردتم استعمال القوة وصرفهم بالعنف.



يا بني، أنا والله موافق.. لكن لا يمكن أن نغير السكاشن الآن، هذه لها نظام لا بد من تعديله، أما مسألة المدرجات فالأمر سهل وبسيط، وما فعلتموه سيبقى كما هو.

لا.. لا بد من السكاشن أيضا

اعتبر هذا وعدا شخصيا مني، إذا رجعتم من إجازة منتصف السنة ستجدون نظام السكاشن قد جرى تعديله، لكن الآن هذا غير ممكن، لقد بقي شهر واحد على الإجازة، وهذا الوقت لا يتسع للتعديل.

تمام، سأعتبر هذا وعدا شخصيا منك، ونحن موافقون.

إذن، انزل واصرف الطلاب.

لا، لا أستطيع أن أصرف الطلاب، ولكن سأكتب بيانا أقول فيه إن الدكتور عبد الرازق حسن نائب رئيس الجامعة قرر الموافقة على هذا الترتيب الجديد، وسَتُوَقِّع عليه قبل أن أعرضه على الطلاب.

حسنا، موافق، اكتب البيان وسأوقع لك عليه.

وعلى هذا انتهى الحوار بيننا، وكتبت البيان ووقعه، ونفَّذ كلٌّ منا ما تعهد به. ولقد امتدَّ أثر هذا القرار تلقائيا إلى كل شيء في الجامعة، حتى الكافتيريا، نَظَّم أصحاب الكافتيريات في الجامعة أنفسهم بحيث يكون بعضها للطلاب وبعضها للطالبات بأثر من هذا الموقف.

وهكذا كان موقف واحد سببا عظيما في اصطباغ الجامعة بالصبغة الإسلامية، وشيوع الهدي الظاهر فيها، وترافق هذا مع كوننا نحن الجماعة الإسلامية في جامعة أسيوط الأعلى صوتا ضد نظام السادات والأكثر هجوما على سياساته، ونحن بهذا الثوب الإسلامي واللهجة الإسلامية والصبغة الإسلامية. كان صوتنا أشد قوة وأكثر إسلامية من الإخوان المسلمين، ومن السلفيين بطبيعة الحال، فالسلفيون يتجنبون الاشتباك السياسي، لقد كنا نحن الثوريين، كنا نمثل القوة التغييرية القادرة على الفعل، وكنا بفضل الله عز وجل وعونه إذا أردنا شيئا فعلناه، وقد استطعنا أكثر من مرة أن نفرض ما نريد على كل قيادات المحافظة حتى المحافظ ومدير الأمن ورئيس الجامعة.

لقد كان السر في هذا أننا كنا تيارا متماسكا قويا، صحيحٌ أننا مع الوقت بدأنا نتحول رويدا رويدا إلى نوع من التنظيم والمسؤولية وتوزع الصلاحيات، إلا أن الغالب في هذه الفترة ولفترة بعدها كان هو الحب، كانت علاقة الحب هي السائدة وكانت القيادة تدير الجميع من منطلق الأخوة والتقدير والاحترام، إذا قال صلاح هاشم شيئا هرعنا لتنفيذه، أمير الكلية يرى شيئا فيسابق إخوانه لعمله، كان الأمر فطريا دون تأصيل فقهي أو عمق فكري، حتى إنك لو سألتَ أحدنا يومئذ: هل طاعة الأمير واجبة؟ لكانت الإجابة التلقائية: لا. ولكن الواقع العملي كان يشهد أن الإجابة: نعم. فلم تكن الطاعة التي يبذلها الإخوة لأميرهم ومسؤوليهم طاعة صادرة عن اختيار فقهي أو نظر علمي، بل هي صادرة عن شعور الحب الغالب، ومما يرونه في أميرهم من العمل والتضحية والبذل والسبق.

كان وجودي في الجماعة الإسلامية استمرارا لموقعي في المعسكر المعارض لنظام الحكم، لقد وجدتني منذ وعيت ضدّ هذا النظام، ذلك هو مشربي الذاتي وندائي الداخلي وفطرتي السليمة، ومنذ فكرتُ قديما في الالتحاق بكلية عسكرية لإدارة انقلاب عسكري، مرورا بجماعة الشيخ عبد الله السماوي، وصولا إلى الجماعة الإسلامية وأنا أعي أنني في مجموعة تعارض هذه السلطة. حتى حين كنت ذات يوم مع عبد الناصر وعضوا في الاتحاد الاشتراكي لم أكن أشعر أبدا أنني جزء من هذا النظام أو أنني أوالي هذه السلطة.

وعلى هذا النحو جاء كافة القيادات الذين أسسوا الجماعة الإسلامية مثل الشيخ صلاح هاشم والشيخ أسامة حافظ والشيخ حمدي عبد الرحمن والشيخ ناجح إبراهيم، كلهم كانوا على هذا المذهب ومن هذا المشرب، ولعل هذا هو الذي جمع بيننا في أعماقنا: شعورنا بالمعارضة لهذا النظام الفاسد الذي لا يخدم البلد، بل هو نظام يوالي اليهود والأمريكان، نظام لا يمكن قبوله، ولا يمكن أن يكون هذا هو النظام الإسلامي بحال، ومن ثَمَّ فقد استشعرنا الواجب المفروض علينا: أن نقوض هذا النظام لإحلال نظام أفضل. تلك هي أساس الفكرة التي تكونت حولها الجماعة الإسلامية رويدا رويدا.

لقراءة الحلقات السابقة:

تمهيد: موجز سيرة رفاعي طه
(١) طفولة بسيطة في قرية مغمورة
(٢) أول الطريق إلى المسجد، وإلى السياسة
(٣) أول تفكير في إقامة دولة إسلامية
(٤) فهمت الحديث النبي من ضابط أمن الدولة
(٥) أحرقَ كتاب سيد قطب في الصومال
(٦) قصتي مع التصوف
(٧) ثورة في المدرسة
(٨) كنت عضوا بالاتحاد الاشتراكي
(٩) كنا البديل لما لا يعجبنا
(١٠) أخفقت خطة إقامة الدولة الإسلامية
(١١) انكسار الأحلام في حرب أكتوبر
(١٢) انضمامي لليسار
(١٣) قصتي مع اليسار في الجامعة
(١٤) بيعتي للشيخ السماوي
(١٥) بداية زعامة صلاح هاشم
(١٦) محاولة الإخوان الهيمنة على جامعة أسيوط
(١٧) كيف صار ناجح إبراهيم أمير الجماعة الإسلامية؟
(١٨) الانشقاق بين الإخوان والجماعة الإسلامية في أسيوط
(١٩) أقمت معسكرا للتأليف بين جماعة الإخوان والجماعة الإسلامية وفشل !
(٢٠) لم يتسامح السادات مع التيار الإسلامي
(٢١) نظرة من الداخل على التيار الإسلامي بجامعة أسيوط



فارس
عثمان

قصيدة

قضاء العار

نيابةُ خِسَّةٍ وقَضاءُ عارِ .. يُطأطِئُ للعساكِرِ في صَغارِ

ظنَنّا أنكم للحقِّ حصنٌ .. فكنتم شرَّ آلاتِ الحِصارِ!

وخُنتُم وارتَضَيتُم أن تكونوا .. مطيَّتَهم كتَيسٍ مُستعارِ!

فأرفَعُ منكُمُ وأجَلُّ قدرًا .. نعالُ «العِزِّ» في وجهِ التتارِ!

وما في مصرَ شرٌّ من قُضاةٍ .. «أحَلُّوا قومَهم دارَ البَوارِ»

قضى شرفاؤها في السجنِ دهرًا •• وقيلَ لذِئبِها «حامـي الديـارِ»!
غـدت بئـرًا مُعَطّلـةً وقصرًا •• مَشيدًا فوقَ أطلالِ القِفـارِ!
وما القانونُ فيها غيـرَ حبـرٍ •• وأسفارٍ تُحَالُ علـى حمـارِ!
وقد كانت محاكِمُكم كقُدسٍ •• فأمست مِثْلَ صالاتِ القِمارِ
وكـم دنَّستُـمُ محرابَ عـدلٍ •• فأضحى اليومَ شرًا من ضِرارِ
وجـاهـرتُـم بفُهرِكُمُ وأحرى •• بمرتكبِ الكبيـرةِ أن يُواري
فلو لاقاكُـمُ الحُجّاجُ يومـًا •• لما رَجَموا سِواكُـم بالجِمارِ
علـى كـل الموائدِ قد أكَلتُم •• فضَجَّ سـريرُ صُنّاعِ القـرارِ!
وما تدرون معنـى العـدلِ إلا •• كما تدري القِحابُ عن الخِفارِ!
تجَـرَّأتُـم علـى قمـمٍ عِظامٍ •• بأقـزامٍ وقـامـاتٍ قِصارِ
وأشرفُ من تولى الحُكمَ يـومًا •• بمصـرَ أسرتمـوهُ.. وأيُّ عارِ!
ألَمّا تعلموا أنّـا سَـئِـمـنـا •• سفالاتِ الأراذِلِ والصِغارِ؟!
سَـئِـمـنـا يا سماسِرةَ القضايا •• ومـأموري البراءةِ والإسارِ
على الشرفاءِ ثُرتُم فابتُليتُم •• بوَغْـدٍ ساقَكُم سَوقَ الحِمارِ
وقد أزرى الخسيسُ بِكُم إلى أن •• رمـى لكـمُ فُتاتًا باحتقارِ!
فمـا ثُرتُـم بـرغـمِ الـذُّلِّ إلا •• تمخُّـضَ لَبـوةٍ جـاءتْ بفارِ
فيا خِـرَقَ الطُّغـاةِ لنا قَصاصٌ •• بذي الدُّنـيـا وفي دارِ القرارِ
هنـالك ربُّنـا هـو خيـرُ قاضٍ •• فـلا مـالٌ يفيدُ ولا ذراري!
ستلعَنُكُـم مظالِـمُ عـن يميـنٍ •• ويقتَصُّ الأُسارى عن يسارِ
شَنـارُ أن قَبِلتُـم أن تكـونـوا •• دمىً للبهلوانِ بلا اختيارِ
أتمـّوا المسرحِيـّةَ كيفَ شِئتُـم •• وفِرّوا قبل إسدالِ الستارِ!
فقد سَفُلَ القضاةُ بمصرَ حتى •• أُشيرَ لِـدُونِـهِـم بالمُستَشـارِ!

وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الآية (٥٢)





مقاصد سنة التدافع

(الحلقة الأولى)

د. وصفي عاشور أبو زيد

أقام الله تعالى الكون والحياة والأحياء على سننه الإلهية وقوانينه الربانية، التي جعلها قوانين كلية عامة ثابتة لا تتغير مضطردة مستمرة تسري على جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم.

ومن أهم هذه السنن سنن التداول الحضاري التي تتعلق بقيام الأمم وانهيارها، وإقامة الدول وهدمها، وعلى رأس هذه السنن سنة التدافع بين الحق والباطل، وقد كتب في هذه السنة كثيرون في ضوء القرآن والسنة، ونحن في هذه الحلقات نقتصر فقط على بيان مقاصد القيام بهذه السنة، فإن للقيام بسنة التدافع والتفاعل معها طبقًا لمراد الله تعالى، مقاصدَ تتحقق بذلك، ومن أهمها:

القيام بسنة التدافع والتفاعل معها ليس نافلة ولا خيارًا يختار الإنسان بينه وبين غيره، وإنما هو واجب حتمي لا مفر منه وإلا فالاستبدال هو الفعل الإلهي المترتب على إهمال سنة التدافع طبقًا لسنن الله في الحياة والأحياء.

وكل الآيات القرآنية التي تأمر بالجهاد والإعداد والقتال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي واجبات شرعية لا يسع المسلم إلا امتثالها، فحين يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال ٦٠] فإن فيه أمرًا واضحًا بالإعداد، وهذا الإعداد هو عين المدافعة.

يقول العلامة عبد الرحمن السعدي عن إعداد كل ما يمكن إعداده: (أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأْي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلُّم الرَّمْيِ، والشجاعة والتدبير).

وفي القيام بالجهاد في سبيل الله، وبالإعداد الشامل للقوة المنضبطة بضوابط الشرع، وبمواجهة العدو ومراغمته كما أمر الله تعالى، وببذل كل ما في الوسع.. تحقيقُ الامثال لأمر الله تعالى في القيام بمقتضى سنة التدافع، وبهذا تترتب آثار هذه السنة وتتحقق مقاصدها.

ولهذا يقول العلامة جمال الدين القاسمي: ((دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية، اتقاء بأس العدوّ وهجومه، ولما عمل الأمراء بمقتضي هذه الآية، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزًا، عظيمًا، أبيّ الضيم، قويَّ القنا،

جليل الجاه، وفير السنا؛ إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابًا متتالية وهم سادة الأمم، وقادة شعوب، وزمام الحول والطول وقطب روحي العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوة.



وأما اليوم، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض؛ ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني، وكيف لا يطمع العدوّ بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة وذخائر الحرب، بل كلها مما يُشترى من بلاد العدوّ؟ أما آن لها أن تتنبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقي عليها تنقص العدوّ بلادها من أطرافها درسًا يجب أن تتدبره، وتتلافى ما فرطت به قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورَجِلِه، فيقضي -والعياذ بالله- على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار. وبالله الهداية). [محاسن التأويل: ٣٠٢٥ - ٣٠٢٦. الطبعة الأولى. ١٩٥٧ . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي].

إذا كان القرآن الكريم بين أن التدافع أساس كوني وخَلقي وتشريعي فإن السنة النبوية - وهي الشارحة والمبينة للقرآن الكريم - لا تخرج عن ذلك أيضاً؛ وتأتي هنا النصوص النبوية التي ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك الحديث المباشر في هذا المعنى الذي رواه أبو سعيد الخدري قال: (أَوَّلُ مَن بَدَأَ بالخُطْبَةِ يَومَ العِيدِ قَبْلَ الصَّلاةِ مَرْوانُ. فَقامَ إلَيْهِ رَجُلٌ، فقالَ: الصَّلاةُ قَبْلَ الخُطْبَةِ، فقالَ: قدْ تُرِكَ ما هُنالِكَ، فقالَ أبو سَعِيدٍ: أمَّا هذا فقَدْ قَضى ما عليه سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مَن رَأى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ). [أخرجه مسلم في صحيحه].

فهذا التغيير بدرجاته المختلفة (اليد واللسان والقلب) هو من التدافع، وإن كان يلتقي مع سنة التغيير كما سيأتي ذكره عند الحديث عنها، فالمنكر باطل، ولابد لهذا الباطل من مدافعة، حتى لا تفسد الأرض، ومن عظمة الإسلام أنه حين يعجز المسلم تماماً عن التدافع الذي يبدو أنه قوي ومباشر وهو باليد واللسان، لم يتركه ليجمد ويموت قلبه فيصبح «كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً»، وإنما أبقى له الحد الأدنى ليحافظ على حيويته وحياته؛ فأتاح له التدافع بالقلب، وليس وراء ذلك من التدافع حبة خردل!

ومن ذلك ما ورد عن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَثَلُ القائِمِ على حُدُودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فأصابَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وبَعْضُهُمْ أسْفَلَها، فَكانَ الَّذِينَ في أسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا على مَن فَوْقَهُمْ، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَن فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وإنْ أخَذُوا على أيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا). [صحيح البخاري: ٢٤٩٣].



فهؤلاء هم الذين يريدون خرق سفينة الإسلام، وإغراق مركب الدعوة، ولو تركهم الآخرون لهلكوا وهلكوا جميعاً، ومن ثم يجب شرعًا مدافعة هذا التصرف المغفَّل والكسول حتى تتحقق النجاة، وفي هذا من المدافعة ما لا يخفى، ولا تتحقق النجاة إلا بذلك،و في عدم القيام بذلك هلاك للجميع.

ولهذا ورد عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيدِه لتَأمرُنَّ بالمعروفِ ولتَنهوُنَّ عن المنكرِ أو ليُوشِكَنَّ اللهُ أن يَبعثَ عليكمْ عقابًا منهُ فتدعونهُ فلا يَستجيبُ لكمْ). [أخرجه الترمذي: **٢١٦٩**].

وعن عن عبدالله بن مسعود قال: لمّا وقعتْ بنو إسرائيلَ في المعاصي نهتْهُم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالِسِهم وآكلوهم وشاربوهم فضربَ اللَّهُ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ ولعنَهم على لسانِ داودَ وعيسى ابنِ مريمَ عليهما السَّلامُ {ذَلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ} قالَ فجلسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وكانَ متَّكئًا فقالَ لا والَّذي نفسي بيدِهِ حتّى تأطروهم أطرًا. وفي روايةٍ كلّا واللَّهِ لتأمرنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عنِ المنكرِ ولتأخذنَّ على يدي الظّالمِ ولتَأطُرُنَّهُ على الحقِّ أطرًا أو لتَقصُرُنَّهُ على الحقِّ قصرًا أو ليضربنَّ اللَّهُ بقلوبِ بعضِكم على بعضٍ ثمَّ ليلعننَّكم كما لعنَهم». [أخرجه الترمذي (**٧٤٠٣**)، وأحمد (**٣١٧٣**)، وحسنه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح **٩٨٤١/٤**].

ففي هذين الحديثين يتضح كل الوضوح أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك الظالمين يفسدون في الأرض ويبغونها عوجًا يعاقب الله تعالى عليه عقابًا عامًّا يشمل الجميع، ولا يستثني أحدًا.

المقصد الثالث: حفظ الأرض من الفساد

القيام بسنة التدافع يحفظ الأرض من الفساد، وهذا المقصد واضح كل الوضوح؛ لأنه منصوص عليه في الآية الكريمة من سورة البقرة التي نصتْ على هذه السنة بشكل مباشر.

قال تعالى: ﴿... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ولَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلى العالَمِينَ﴾ [البقرة ٢٥١].

والفساد هنا متمثل في معنين باستقراء لكلام المفسرين: المعنى الأول هو الانحراف الذي يحدث إذا تمكن أهل الفساد والكفر في الأرض، كما يصدقه التاريخ والواقع، والمعنى الآخر هو نزول الغضب الإلهي والإهلاك والعقاب إذا لم يقم أهل الحق بمقتضيات التدافع.

عن مجاهد: يَقُولُ: (ولَوْلا دِفاعُ اللَّهِ بِالبَرِّ عَنِ الفاجِرِ، ودَفْعُهُ بِبَقِيَّةِ أخْلافِ النّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، لَفَسَدَتِ الأرْضُ بِهَلاكِ أهْلِها).

وقال الزمخشري: «ولولا أن اللّه يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض. وقيل: ولولا أن اللّه ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بعيث الكفار فيها وقتل المسلمين. أو لو لم يدفعهم بهم لعمّ الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض». [الكشاف (٤٧٧/١)].

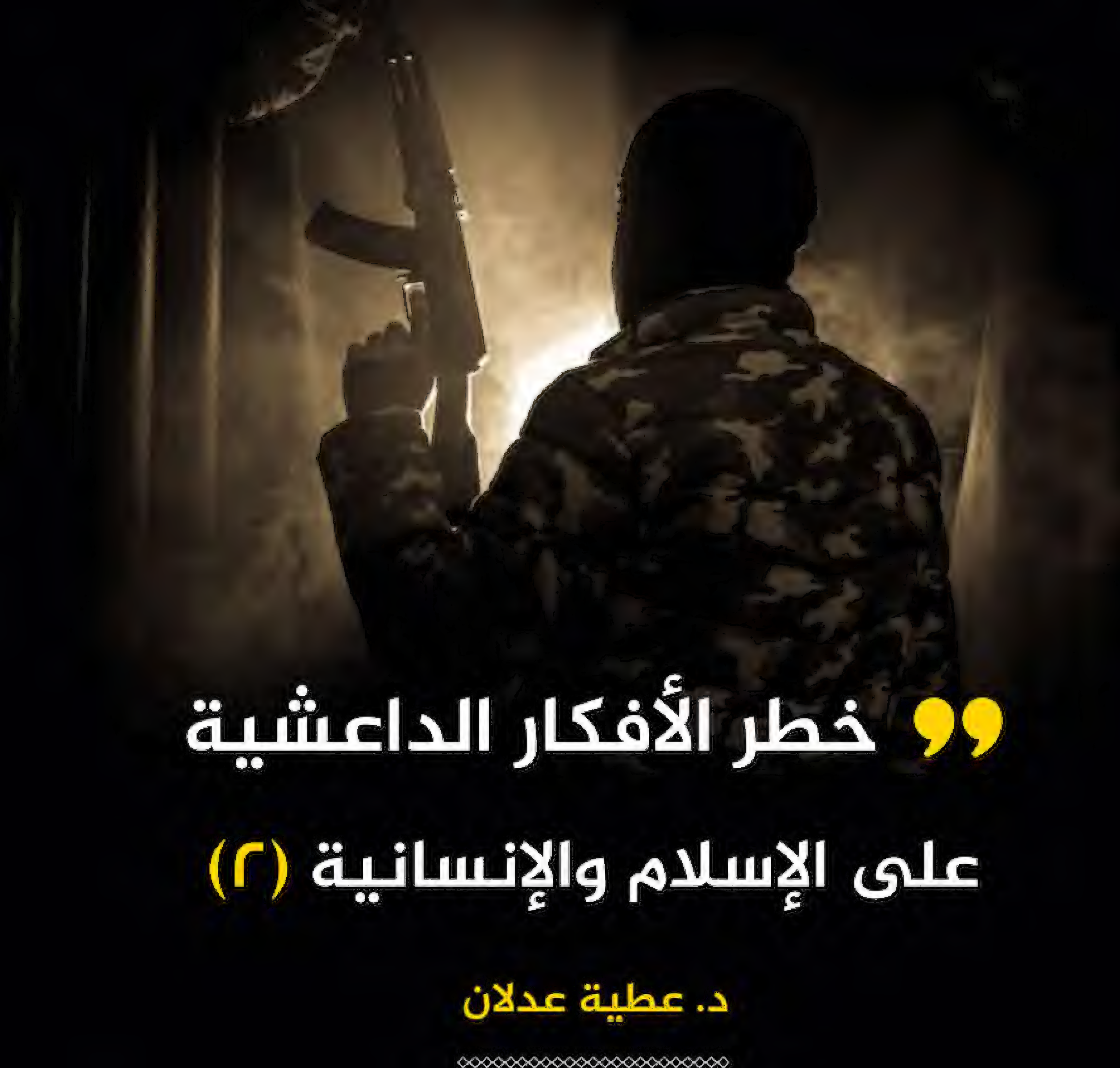
وقرر الله تعالى أن حفظ الأرض من هذا الفساد فضل من الله ونعمة، فقال جل شأنه: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ **قال القرطبي:** «بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ دَفْعَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ شَرَّ الْكَافِرِينَ فَضْلٌ مِنْهُ ونعمة». [الجامع لأحكام القرآن (٢٥٣/٤)].

وقال السعدي: «حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها». [تفسير السعدي، ص١٠٦، ط العبيكان].



وفي تفصيل للوقوف على سر هذا الفساد وطبيعته ومصدره يقول العلامة ابن عاشور: «وإنما كان الحاصل هو الفساد، لولا الدفاع، دون الصلاح؛ لأن الفساد كثيراً ما تندفع إليه القوة الشاهية بما يوجد في أكثر المفاسد من اللذات العاجلة القصيرة الزمن؛ لأن في كثير من النفوس أو أكثرها الميل إلى مفاسد كثيرة، ولأن طبع النفوس الشريرة ألا تراعي مضرة غيرها، بخلاف النفوس الصالحة، فالنفوس الشريرة أعمد إلى انتهاك حرمات غيرها، ولأن الأعمال الفاسدة أسرع في حصول آثارها وانتشارها، فالقليل منها يأتي على الكثير من الصالحات، فلا جرم لولا دفاع الناس بأن يدافع صالحهم المفسدين لأسرع ذلك في فساد حالهم، ولعم الفساد أمورهم في أسرع وقت». [التحرير والتنوير (٢/٥٠٢)].

وهكذا بعدم قيام المؤمنين بواجب التدافع يعم الفساد في الأرض بعد تمكن الكافرين منها، وظهورهم على المسلمين؛ حيث لا يحكمهم خلق ولا إنسانية، وهذا ما أكد عليه التاريخ حين تمكنوا، وهو نفسه ما يشهد له الواقع المعيش اليوم.



خطر الأفكار الداعشية على الإسلام والإنسانية (٢)

د. عطية عدلان

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

"... وإذا كانت الكيانات المفرطة في الغلو والتنطع خطراً على الإسلام وعلى الإنسان؛ فإنّ الخطر الأكبر يتمثل في الفكرة التي تنبت كالسرطان في جسد الأمة وفي الجسد الإنسانيّ كله، وتتسربل بالدين - أيِّ دين - وهي تضمر الكراهية لخلق الله أجمعين؛ لذا وجب التصدي للأفكار أكثر من غيرها..."[١] وهذا ما نعالجه في هذا المقال إتماماً لما سبقه؛ بتناول القضية من زاوية أخرى.

---

(١) المقال السابق بمجلة كلمة حق، عدد ٢٩، خطر الأفكار الداعشية على الإسلام والإنسانية.

لم ينحصر الضلال في الفكر الداعشيّ في مسائل الجهاد وقضايا الإيمان والكفر، وإنّما امتدّ ليشمل جانباً مهماً في الفكر والفقه الإسلاميّ، وهو جانب الفقه السياسي ونظام الخلافة، وكان المقصود الخبيث لمن وراء هذه التنظيمات المدخولة هو حرق مشروع الخلافة وتقديمه للأمة كميتة منتنة في خوان من ذهب؛ ليقال لطلائع الأمة وأهل الطموح فيها: تريدون عودة الخلافة؟ فها هي دونكم فتناولوها؛ فإذا هي مسخ مشوه لا يبدو منه للناس إلا الضغائن والأحقاد وقسوة السيوف والقلوب.

إنّ الخدعة الكبرى التي وقع في براثنها كثير من الشباب هي ذلك الفخ القاتل، الذي يبدو للشباب أنه صيد الخلافة المنشود حتى إذا وقعوا فيه لم يستطيعوا الفرار منه، فإن لم يمضوا معهم في غيهم ويجاروهم في طغيانهم فالكفر هو الحكم الصادر ضدهم يعقبه السيف الذي يفصل رؤوسهم عن أجسادهم، أمّا سائر الخلق فهم ما بين كفار أصليين وكفار منقولين من الإسلام بسبب عدم المبادرة والمسارعة منهم للدخول في البيعة للإمام المزعوم، فأي عالم هذا الذي يريدون جر البشرية إليه، وأي إسلام هذا الذي باسمه يريقون دماء الأبرياء بلا ذنب جنوه؟!

إنّنا إن أعطينا الحق لكل كيان مسلح يرفع راية الجهاد - ولو صدقاً - في أن يُنَصِّب خليفة يطلب له البيعة، ويقسم الأمة بحكمها إلى أهل عدل وأهل بغي؛ فنحن نجهز الأمة لحروب قد تلتهم القرون المديدة وتلتهم معها ملايين الموحدين في أقطار الأرض، إنّها ستكون الفوضى المسلحة التي تأخذ شرعيتها باسم الخلافة الراشدة، وبهذه السخافات نجح أعداء ديننا في غرس ألغام في عقول كثير من الشباب لتتفجر في وجه الجميع وتترك الأمة شذر مدر، باسم الخلافة التي يفترض فيها أنها كيان جامع يوحد الأمة ويجمع شتاتها!

إنّها ليست ألف خلافة وخلافة، إنّما هي خلافة واحدة للأمة الواحدة؛ فلماذا نعطيها للكيانات التي لا تفتأ تتقاتل وتتناحر باسم الجهاد وقتال البغاة؟! إنّ

الخلافة ليست صفقة من أيدي مجهولين لمجهول، إنّها باختصار: "رياسة تامة، وزعامة عامة"[٢]، ودون وقوع ذلك مراحل من التربية والإعداد، ثم من التحالفات بين دول وممالك وإمارات إسلامية، ثم من محاولات دائمة ودائبة لتوحيد الكيانات المتناغمة تلك في جسد واحد، إنّه مشروع الأمة لا مشروع طائفة ولو معتدلة؛ فكيف إذا كانت ضالة ومنحرفة؟!

لقد عانى المشروع الإسلاميّ أشد المعاناة من الافتئات والمزايدة، ولم يعد بالإمكان ترك الأمر لحفنة من الأعراب البوالين على أعقابهم أو الغلمان الذين لا يفرقون بين السياسة و(التياسة)، وإذا كان هناك مسئولية تقع على قوم فإنّها تقع على العلماء الذين خلوا هذه الساحة الخطيرة لفئام من المنغلقين الذين يجري لعابهم لدماء المسلمين حتى إنهم ليتمنون لهم الوقوع فيما يبرر قتلهم ويسوغ تكفيرهم وإخراجهم من الملة وحرمانهم من كل رحمة في الآخرة والأولى!

والمعضلة أنّ هذا الغلو أنشأ بقوة رد الفعل غلوا على الجانب الآخر، تمثل في أولئك الذين يدعون المسلمين إلى أن يدخلوا في النموذج الغربي كافة وألا يتبعوا خطوات الشيطان الذي لا يفتأ يهجم عليهم بأحلام الخلافة، تلك الأحلام الإرهابية السوداوية المتخلفة، حتى صارت الدولة المدنية هي منتهى الآمال التي بشر بها القرآن وأنبأت بها الأحاديث، وحتى اكتشف الخلق - بعد طول غفلة - أن محمداً بن عبد الله كان رئيساً لدولة مدنية!

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم (ص: ٢٢)

ومع أنّ هذا كله طيش وخبل! وهبل في عرض الجبل! نراه يلقى رواجاً عند كثيرين؛ لا لأنّه حق أو حتى يشبه الحق، وإنما - فقط - لخلو الساحة من الفكر الرشيد السديد، الذي يُغيّب ويُغيب القائمون عليه بشتى صنوف التغييب، وكأنّ الأمة في أسرها هذا يجوس خلال ديارها قوافل من شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض أطراف اللعبة الكبيرة، التي يُقَسّم بحسبها المفكرون والمنظرون إلى فريقين: هذا يركل الحقيقة أقصى اليمين وذاك يركلها أقصى الشمال.

إنّ ميدان السياسة الشرعية والفقه السياسي الإسلامي من أشد الميادين حساسية؛ لذلك لا يصح تركه لصبيان أغمار أغرار يتركون الماء ويستجمرون بالأحجار، ولا لعواجيز منهزمين راحوا يستدركون شباباً فات بفرنجة على أبواب الفكر الغربي الذي صار عند أهله قطعاً من الخردة ملقاة على قارعة الطريق، إنّنا بحاجة إلى أقلام متجردة نزيهة وعقول سلمت من الأمراض، واستقامت على الرشد والسداد؛ حتى نكتب للأمة مشروعها، وحتى نقودها إلى إقامته بفكر مستنير وقلوب تجميعية يحفها حساسية التقوى.

وما لم يحدث هذا فسوف تبقى الحقيقة ككرة من المطاط يتقاذفها الفريقان المتنافسان في التطرف والانحراف، بين غلو بالإفراط وغلو بالتفريط، والله المستعان.

.. العالِم المقاوِم ..

أ.د مجدي شلش

أستاذ أصول الفقه المساعد بجامعة الأزهر



العلماء ورثة الأنبياء في العلم والعمل، والجهاد والتضحية وبث الأمل، علم بلا عمل كزرع بلا ماء، ومعرفة بلا جهاد رماد تحته تراب.

الأمة الآن في خطر كبير، بين أنياب اليهود وسندان الصليبين، القتل استحر في كل البلاد، ووقعت الواقعة على رؤوس الرجال والنساء والولدان، محق وسحق للأمة بلا هوادة ولا رحمة، حكام ظلمة، ونخب متصدرة أغلبها خربة، ومؤسسات خاوية، وشعوب أدت بعض ما عليها، فثار أغلبها في وجه جلاديها، طافوا الشوارع والميادين، وعلا صوتهم أمام الجبارين، فقهرهم عتاة الظالمين، وسُجن منهم عشرات الآلاف من البنات والبنين.

الشعوب الآن في حيرة من أمرها، في ظني ينتظرون من يفجر رأس العدو، ويدوس بقدمه عنق الباغي المستكبر، ويسحق عنق المستبد المستعلي، الشباب والنساء خرجت في مصر في كل نجع وحارة، وهتفت بكل قوة يسقط حكم كل خائن وجبان، النساء قدمن الشهداء من فلذات أكبادهن، وعانقن الشهداء بكل فرح وسرور، أمل الناس الآن في قادة عظام، وعلماء كرام، يقومون مقام الأنبياء، لا يخشون في الله لومة لائم، علماء قادة، وقادة علماء، واجبهم الآتي:

أولًا: بيان الحكم الشرعي بكل وضوح فيمن قتل وبغي وخطف وسرق

عملًا بقوله تعالى: «... لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ...» [آل عمران]. فأول سمات العالم البيان والبلاغ عن الله، ومَن كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة، وكما أن للحق علماء، للباطل خبثاء يُنسبون للعلم زورًا وبهتانًا، يجعلون الحق باطلًا، والصدق كذبًا، والأمانة خيانة، يجعلون من الجبان الرعديد شجاعًا، ومن الخائن اللئيم أمينًا، ومن السفيه الحقير حكيمًا، ومن هنا تعظم التبعة على العلماء الربانيين، أحفاد سعيد بن المسيب وابن جبير ومالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل - رضي الله عن الجميع - صدعوا بالحق أمام كل جبار عنيد، وبينوا للناس الحكم الرشيد، فأبقى الله ذكرهم، وخلد عملهم.

ثانيا: الالتحام بالشعوب، وتوحيد الصفوف

بالتربية والتزكية، وإعداد جيل من الشباب طاهر القلب، ذكي العقل، قوي البدن، مدرك للواقع، ومجاهد مناضل، ترك الشباب وحدهم في الميدان بلا شك تقصير، وعواقبه في المآل وخيم، الشباب لا بد لهم من قدوة، وعلم وخبرة، وتبصرة وحكمة، والعلماء الربانيون المجاهدون هذه مهمتهم، وتلك وظيفتهم.

الأنبياء كانوا في مقدمة الصفوف، قاتلوا وقُتلوا في سبيل الله، وحياة العلماء ليست بأثمن من حياة الأنبياء، قال تعالى: «وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا...». [آل عمران].

الأمــة بعلمائها إن تقدموا تقدمت، وإن خافوا جبنت، وإن تقهقروا انهزمت، كل نصر تليد وراءه عالم رشيد، جاب العز بن عبد السلام والإمام العلامة القرافي ربوع مصر كلها لما أوشك التتار أن يدخلوا القاهرة، وقرأوا سورة الأنفال على كل منبر، وشرحوا مقاصد الجهاد في كل محفل وتجمع، فنصر الله المسلمين نصرًا مؤزرًا، فأصبح آية وحكاية لكل الأجيال، أن النصر من عند الله وأن سببه بعد الله طليعة العلماء.

على الدرب سار ابن تيمية رضي الله عنه جيّش الجيوش بنفسه بعد أن تقاعس الحكام وخافوا وجبنوا، فانتصر على الصليبيين أكثر من مرة، المعركة التي ليس في مقدمتها العلماء يسودها الجهال من الناس حتى ولو كانوا أتقياء، العلم أساس النصر، والجهل أبو الهزائم.



ثالثًا: المعركة الآن كبيرة وعظيمة، تحتاج كل عالم وفاهم

وبداية النصر أن يتوحد أهل العلم تحت راية القرآن والجهاد، لابد من هيئة علمائية تجمع أحرار العلماء من كل بلد، علماء تحرروا من أسر الدنيا الفانية، والشهوات المهلكة، والوطنية الزائفة، والقطرية المحدودة، والأهداف القصيرة، والرؤى القاصرة.

العدو واحد ومتحد، وكسره وهزيمته بالوحدة والقوة، والإعداد ورفع راية الجهاد، بعد تدريب جهيد، وعقل يدير رشيد، لو توحد العلماء تحت راية القوة وعلا صوت النداء ما هزمهم جبان، وما انتصر عليهم خائن، العلماء أمل الشعوب المقهورة، والأمة المهزومة (وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا) .

" كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب بالدِّرة مَن تجمعوا لقراءة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والميدان مشتعل بالجهاد والدماء، أي علم هذا والمعركة قائمة، وأي حفظ للمتون والعدو دخل أبواب القاهرة، ولنا في نداء الكنانة عبرة وعظة، هز أركان الظلم في الداخل والخارج. "

صوت العلماء رعد وبرق، وقوة للأمة ونصر، تجمع في نداء الكنانة أكثر من مائة عالم فصاحوا في الأمة بكلمة الحق، ونادوا بالقوة ونصرة المظلوم، وقالوا مقاومة الباغي شرع محمود، الأمة فيها علماء كثر، ينقصهم الرابط والهدف الواحد، لو تجمع ألف عالم تحت مظلة واحدة لقامت لهم الدنيا وقعدت، يجمعهم العلم والحب والجهاد والمقاومة ونصرة الأمة، لا حل في نظري لهزيمة الباطل، إلا هذا.

الشباب ينتظر أهل العلم في المقدمة، ينتظر ورثة محمد صلى الله عليه وسلم رافعين راية الحق، وجاهرين بلسان الصدق، ومقاومين للاستبداد والظلم.

رابعًا: العلماء المقصودون ليسوا من درسوا الشرع وحدهم

وإنما كل من تعمق في فقه النص والواقع، فيدخل العالم بالنص والدارس للواقع والسياسي البارع، والاقتصادي الخبير، والإعلامي المتقن، والإداري والاستراتيجي صاحب المهارة في التخطيط، كل ذلك أهل علم تنتظرهم الأمة بكل حب وشغف، وتعول عليهم بعد الله في كل أمل.



بعض الإخوة الكرام سيقول: الجمعيات كثيرة، والجماعات والتنظيمات موجودة، ما فائدة تجمع جديد مع هذه التجمعات اللا محدودة، **والجواب:** أن هذا التجمع الجديد هدفه الأول الجمع ما أمكن بين هذه التكتلات الكثيرة، وتقويتها في أداء دورها، وتقديم الدعم لها، ونصرتها حتى تحقق أهدافها، ولو اجتمع ألف عالم على هدف واحد، لقلت هذه التكتلات، وما بقي منها إلا النافع المستمر.

الحمد لله ثقتنا في نصر الله كبيرة، وظننا بربنا جليل وعظيم، ونصره أقرب إلينا من حبل الوريد، لكنه يحتاج السبب الرشيد، ولعل ما طرحته هنا وقبل ذلك يكون من أسباب التحقيق للنصر المجيد، اعتقادي الجازم أن الأمة في حالة مخاض كبير، والمخاض يصاحبه ألم وتعب ومشقة، وأهل العلم هم النور والهداية وقائدو النصر والتمكين، بعد جهاد مع الشباب ضد الأعداء كبير ومرير.

أنادي بمقالتي هذه كل عالم في فنه، من حديث أو تفسير أو فقه أو أصول أو لغة أو سياسة أو اقتصاد أو نفس أو اجتماع أو إدارة أو رؤية مستقبلية، وهم الحمد لله كثر، لكن الرابط الذي يجعلهم يتناغمون ويتجانسون ويتفاهمون حول رؤية واحدة وهدف جامع هو الهدف المنشود.



حول حصار مضايا

عبد العزيز الطريفي

فك الله أسره *

منذ ٢٠١٦/١/١٢ الكلام في قضية الحرب على سوريا وما يتعلق بمضايا على سبيل الخصوص وأجناسها من البلدان المحاصرة وفيها جماعة أو طوائف أو بلدان من المسلمين.

الكلام يجب النظر فيه من جهات الحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد: الكلام في قضية الحرب على سوريا وما يتعلق بمضايا على سبيل الخصوص وأجناسها من البلدان المحاصرة وفيها جماعة أو طوائف أو بلدان من المسلمين.

---

* نُشر هذا المقال في موقع طريق الإسلام بتاريخ ٢٠١٦/١/١٢

الكلام يجب النظر فيه من جهات:

الجهة الأولى:

يجب أن يُعلم أن هذه حرب على الإسلام وليست حرب على مضايا أو فئة معينة وإنما حرب على الإسلام، ولكن الأدوات والأيدي المستخدمة في ذلك مختلفة، فربما يستعمل يد ضالة زائغة بعيدة عن الإسلام من طوائف الضلال من الداخل، وربما يكون اليد التي تستعمل يد خارجية كاليهود والنصارى.

لهذا يجب أن نعلم أننا إذا نظرنا إلى أزمات المسلمين أو الأزمة السورية على سبيل الخصوص على أنها أزمة قُطر أو أزمة بلد أو أزمة عرق أن هذه النظرة هي جزء من الخلل في هذه القضية وفي معالجاتها، فإذا لم نعرف الداء لم نعرف الدواء، فيجب أن نعلم أن هذه القضية هي حرب على الإسلام والتآمر في ذلك هو تآمر عالمي ودولي، وأن مخاطبات المنظمات أو الهيئات أو الجمعيات أو غير ذلك من المنظمات الإنسانية بلغة إنسانية هو مخاطبة عدو من جهة الحقيقة لا مخاطبة صديق لما حوصر اليزيديّون أسقطوا عليهم الطعام بالطائرات، ولما وجد كثير من الكوارث لغير المسلمين يبادرون بإغاثتهم وإنقاذهم ولكن ما يتعلق بالمسلمين لا في سوريا ولا في العراق ولا في اليمن ولا في بورما وغيرها وكأن هؤلاء ليسوا من الجنس البشري. يجب أن نعلم أن القضية قضية حرب على الإسلام وليست قضية إنسانية بحتة أو قضية قُطر أو بلد لهذا يجب على المسلمين أن يتكاتفوا ويعرفوا العدو وإن اختلفت الأيدي في ذلك.

الجهة الثانية:

يجب أن نعلم أن المسلمين جسد واحد كما قال صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ» [صحيح البخاري:٢٤٤٦] ويقول صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى شَيْئًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» [صحيح مسلم:٢٥٨٦]،نعلم أن الأمة ظلت مخدرة لعقود



طويلة جدًا، لكنها بدأت تستيقظ من ضربات الآلام والمكر التي توالت عليها من داخلها ومن خارجها وإن شاء الله إنها في مرحلة استيقاظ. من الأمور المهمة التي يجب أن تُعلم أن المسلمين إذا لم يقوموا بحل قضيتهم واستنفار جهودهم بما استطاعوا؛ لهذا يجب على المسلمين حكومات وشعوب وكذلك خاصة سواء كانوا رؤساء أو علماء أو أصحاب كلمة أو قول يجب عليهم أن يقوموا بأمر الله عز وجل ومخاطبة الناس.

النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا علم بقوم أو جاءه قومٌ جياع أو عراة أحمر وجهه صلى الله عليه وسلم وصعد المنبر وحث الناس للتبرع لهؤلاء وقد جاءت أحوال كثيرة من ذلك. لهذا نقول المسلمون في خير كثير ولديهم أموال عظيمة ونفقات فيجب عليهم أن يتبعوا الخطوات التي أمر الشارع بها:

أولًا: أن يُجمع لهؤلاء المسلمين بالتبرعات قدر الوسع والإمكان رسميًا وعلنيًا بإعلام، بأعيان، بمنظمات، بمؤسسات، قدر الوسع والإمكان، لأن هذه الكارثة وهذا الحصار الشديد الذي علا المسلمين في الشام ينبغي أن تُفك حوله جميع القيود، والله عز وجل قد رفع الحرج على الإنسان في أمورٍ قد حرمها عليه حتى في أكل الميتة والدم، فإذا اضطر الإنسان لها وخشي

الهلاك فتزول الحواجز الشرعية لهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ» [مجمع الزوائد:٤/٢٠٦]،ويقول صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحيح البخاري:٢٤٤٢]، فإن خذلان المسلمين في الشام؛ نوع من إسلامهم لعدو يستبيح حرماتهم جميعًا من دينٍ أو عرقٍ أو عقلٍ أو كذلك نفس أو غير ذلك مما حرمه الله عز وجل من حرمات المسلمين.

ثانيًا: ما يتعلق بالنفقة فإن الشريعة قد أجازت تعجيل الزكاة، فأنا استحث المسلمين عمومًا أن يعجلوا زكاة أموالهم لعامٍ أو عامين فإن هذا من الكوارث ويتأكد ذلك في مثل هذه النوازل وقد أذن النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس رضي الله عنه تعجيل زكاته لعامٍ أو عامين،فنقول لا حرج عليهم بل يستحب في مثل هذه الظروف أن يعجل الإنسان زكاة ماله.

”وأيضًا يجب أن يُعلم أنه حتى لو لم يكن زكاة، ففي الأمة خيرات كثيرة ولديها نفقات عظيمة وأموال كثيرة سواء كانت حكومية أو كذلك أهلية، يجب عليهم أن ينفقوا وأن يقاسموا لقمة عيشهم ولباسهم لإخوانهم في الشام. لهذا يجب أن يكون الاستنفار في الواقع لا استنفارًا إعلاميا أو كلاميًا أو مجرد صرخات بحيث الإنسان يخرج نفثات الصدر ويغيّب الواجب عليه من جهة الحقيقة وهي؛ العمل. ويجب علينا أن ندرك أن ما حل بالشام مع وجود الأسباب التي تؤهلهم للكفاية والغنى فأرضٌ خصبة وسماءٌ تمطر وأرضٌ تنبت وكفاية من الله عز وجل فأتاهم أنهار تجري من بين أيديهم ومن خلفهم ومع ذلك حل بهم ما حل، فالخذلان الذي جاء من المسلمين للشام يفوق الوصف لا حكومات ولا شعوب، فيجب عليهم أن يتقوا الله عز وجل وأن لا يأمنوا من عقابه أن تدور الدائرة عليهم.“



بلدان المسلمين تتأكل واحدةً تلو الأخرى أفغانستان .. بورما .. العراق .. الشام .. اليمن يُؤكَل منها الأخضر واليابس والمسلمون ينظرون والسليم منهم ينظر للمريض وكأنه لا يعنيه ويذبحون كحال الشياة بيدِ جزارها واحدةً تلو الأخرى وكأن ذلك لا يعنيهم، والله عز وجل قد أعطى الإنسان عقلًا ولو لم يكن لديه شرع يميز به ما حل بالمسلمين فيجب عليه أن ينصر المسلمين يقول الله تعالى: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [الأنفال:٧٢].

أسباب الخير الموجودة في الشام أعظم من الأسباب الموجودة في جزيرة العرب لا من جهة الأمطار ولا من جهة الأنهار ولا من جهة الأسباب المادية، ومع ذلك أنزل الله عز وجل فيهم ما أنزل فلا يأمن الإنسان في جزيرة العرب مكر الله فيجب عليه أن يدفع عقاب الله بامتثال أمر الله عز وجل والانتصار للمسلمين. الكلمات تعجز الحقيقة عن أداء حق المسلمين في الشام ووصفه وتقدير الواجب في ذلك ولكن لعل في هذه الأحرف ما يسدُّ شيئًا من الواجب في ذلك ويكون إعذارًا عند الله عز وجل.



"اللهم يا سامع الشكوى ومغيث الملهوفين يا لطيفًا بعباده يا خبيرًا بهم يا ذا القوة والبطش، ياصاحب القدرة والجبروت نسألك بكل اسمٍ هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أن تنصر المسلمين في الشام عمومًا وفي مضايا خصوصًا، وأن تفك حصارهم وقيدهم، اللهم إنهم حفاةٌ فاحملهم وجياعُ فأطعمهم اللهم إنهم ظمأى فاسقهم، اللهم فاغثهم غيثًا من عندك تفك به كربهم وتشد فيه من أزرهم وتقوي ضعفهم، اللهم عليك بمن باشر حصارهم ومن أعان على ذلك، ومن خذل وهو قادر يتماهى في إهلاكهم، اللهم اجمع كلمة المسلمين على الحق نُصرةً للحق اللهم أيقظ أهل الغفلة من أهل الإسلام واجعلهم مبصرين بما يُحاك حولهم، اللهم انصر أهل الشام عمومًا بنصرك وأيدهم بتأيدك واجمع كلمتهم على الحق، واجعلهم قائمين بأمرك ممتثلين له مجتنبين نهيك آمنين من مكر عدوك، اللهم عليك بأعداء الملة والدين ممن كان داخل هذه الأمة وخارجها، اللهم زد المسلمين بهم بصيرة واجعلهم فيهم أهل يقينٍ بك وثقة بنصرك، اللهم اربط على قلوب إخواننا في الشام اللهم اربط على قلوبهم، اللهم اربط على قلوبهم، اللهم ثبتهم بثباتٍ من عندك، اللهم لا تزغ قلوبهم وأمّنهم من الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم اجمع كلمتهم على الحق وارفع راية الجهاد وأعلي كلمة الحق، وانصر من نصر الدين واكبت من حاربه إنك ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد."

ودخلت الخيل الأزهر

هيئة تحرير مجلة كلمة حق

مقدمة

حلت في شهر ديسمبر وبالتحديد في اليوم الخامس، ذكرى وفاة الأستاذ الجليل والمفكر الإسلامي الأستاذ محمد جلال كشك رحمه الله، وقد خلّف وراءه العديد من المؤلفات الرائقة ومن دررها كتابه "ودخلت الخيل الأزهر"، والذي نستعرض في ركن "تراث الأزهر" اقتباسات منه تذكرنا بدور الأزهر العظيم ومكانته، ولكن قبل البدء: من هو محمد جلال كشك؟



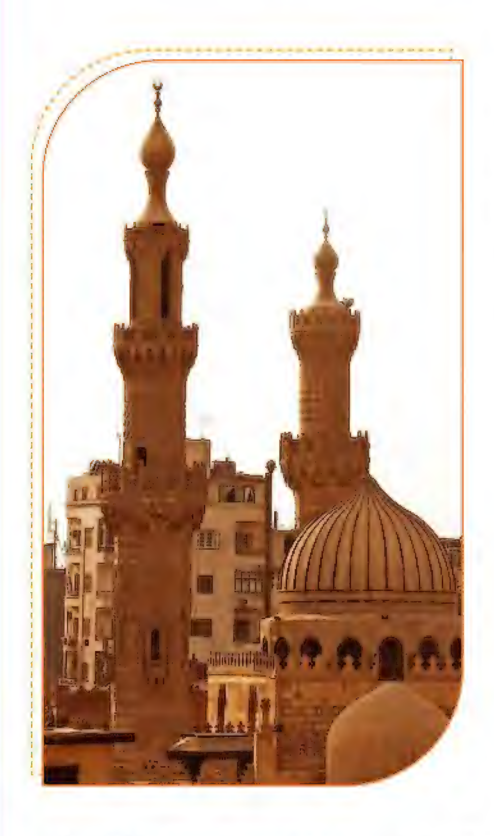
ولد الأستاذ كشك بلدة المراغة، بمحافظة سوهاج، بصعيد مصر، عام **١٩٢٩م**، وسط أسرة متدينة محافظة؛ فكان والده يعمل قاضيًا شرعيًّا، وهو أول من أصدر في مصر حكمًا شرعيًّا بتكفير البهائيين، كما يذكر الأستاذ محمد جلال كشك عنه. تلقى تعليمه الأولي والثانوي بالقاهرة، لسكنه حينئذ بالمنطقة الواقعة بين شارع سوق السلاح وباب الوزير بحي الدرب الأحمر بالقاهرة القديمة التاريخية، والتحق بعدها بكلية التجارة بجامعة القاهرة عام **١٩٤٧** ليتخرج منها عام **١٩٥٢**، وقد أدى امتحان نهاية العام وهو سجين في معتقل "هايكستب"، بتهمة التحريض على قتل الملك فاروق، ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يُعتقل فيها، بل تكرر اعتقاله في الحقبة الناصرية.

وقبل أن يعتنق الفكر الإسلامي، اعتنق كشك الشيوعية عام **١٩٤٦**، وكان من مؤسسي الحزب الشيوعي المصري، وبعد خمس سنوات من الانتظام في الحركة الشيوعية، اعتزلها عام **١٩٥٠م**. وعاش لفترة حالة من عدم الانتماء، وفي عام **١٩٦٢م** كتب سلسلة مقالات بعنوان (خلافنا مع الشيوعيين)، فردّت عليه جريدة البرافدا السوفيتية -وكانت أول مرة تهاجم صحفيًّا مصريًّا باسمه- وقالت: "إن استمرار جلال كشك في الصحافة المصرية يسيء للاتحاد السوفيتي". فأُخرج من حقل الصحافة عام **١٩٦٤م** إلى عام **١٩٦٧م**، حيث قضى ثلاث سنوات حُرم فيها حق العمل، ثم أُعيد للعمل في مؤسسة (أخبار اليوم).

أقام جلال كشك وأسرته ببيروت طيلة مرحلة السبعينات حيث عمل صحفيًّا بجريدة الحوادث اللبنانية. وفور انتخاب الرئيس الأمريكي رونالد ريجان في نوفمبر **١٩٨٠م**، أدلى بتصريح لمجلة التايم قال فيه: "إن المسلمين قد عادوا إلى الداء القديم، أو الاعتقاد القديم بأن الطريق إلى الجنة هو الموت في القتال ضد المسيحيين واليهود".

وكان الاحتجـاج الإسلامي الوحيد هو برقية من جلال كشك، بينما التزم الجميع الصمت، وقد قال في برقيته: "إن الحرب الدينية التي سجّـلها التاريخ ودخلت في قاموس الفكر الإنساني كرمز للتعصب الديني اسمها «الحروب الصليبية»، وليست

الحروب المحمَّدية ولا الهلالية، فلسنا الذين اخترعنا الحروب الدينية، ولا نحن الذين نحتنا صيغتها واسمها في تاريخ الإنسانية، وليس ذنبنا أن المعتدين علينا، وعلى بلادنا واستقلالنا من المسيحيين واليهود. ولا جريمة إذا اعتقد المسلم الضحية أن الله يرضى عن الذين يدافعون عن استقلال بلادهم".



وأصيب الأستاذ كشك بأزمة قلبية حادة، فاضت روحه على إثرها في يوم الأحد ٢١ جمادى الآخرة عام 1414، الموافق ١٩٩٣/١٢/٥ م، ودُفن في مصر، وأوصى أن يُدفن معه في مقبرته ثلاثة كتب: «السعوديون والحل الإسلامي، ودخلت الخيل الأزهر، وقيل الحمد لله».

الأزهر يقود الأمة

يقول الأستاذ كشك رحمه الله:

في أكتوبر ١٧٩٨ دخلت الخيول الفرنسية الأزهر، وأعمل الجند الفرنسيون السيف في طلبته وشيوخه، ونُهبت الكتب ومـزقت مخطوطات عمرها عدة قرون، ألقوها أرضًا ووطئتها سنابك الخيل، ونهب بعضها اليهود الذين كانوا في خدمة جيش الاحتلال. ثم اتخذ الجند من المسجد -الجامعة- إسطبلًا للخيل، وظلَّت فيه حتى تشفَّع الشيخ "الجوهري"، الذي لم يقابل في حياته حاكمًا، ظالمًا كان هذا الحاكم أو عادلًا. ولكنه خرج على النهج الذي ألزم نفسه به، وتوجه إلى "نابليون"، طالبًا خروج الخيل من الأزهر. وأدرك نابليون خطورة احتلاله المهين للأزهر وعمق تأثيره في المصريين فأمر بالجلاء عنه؛ ليلقي القبض على عدد من مشايخه ويقطع رءوسهم في سجون القلعة.

كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ مصر، التي يُمتهن فيها الأزهر على هذا النحو، وأول مرة يتطاول فيها حاكم على شيوخه إلى حد الإعدام؛ ذلك لأنها كانت أول مرة يحتل فيها مستعمر أجنبي مصر منذ أن كان الأزهر.

كان "الأزهر" هو رمز سيادة الأمة، ومركز قيادتها. وما إن سقطت "الدولة" المصرية في معركة إمبابة، حتى أصبح الغازي المحتل، والأزهر، وجهًا لوجه. فقاد الأزهر مقاومة الأمة على جميع المستويات: من المقاومة السلبية التي قادها الشيوخ الكبار داخل مجالس نابليون، وداخل التشكيلات الإدارية التي أقامها لحكم البلاد، إلى المقاومة الوطنية العنيفة التي قادها الشيوخ الصغار، بتنظيم حركات سرية، وأعمال المقاومة الشعبية -التي وصلت ذروتها بتنفيذ أهم ثورتين عرفهما الشرق في ذلك الوقت- إلى أعمال الاغتيال التي نظَّمها ونفَّذها بنجاح طلبة الأزهر، "المجاورون".

كـان الأزهــر يمثل الكيان المتميز لهذه الأمة، يمثل ذاتها وتراثها، وإمكانية مستقبلها، وأدرك المحتلون ذلك كله؛ لذا نراهم في نفس الوقت الذي يجرون فيه المفاوضات والمساومات مع الباب العالي بهدف التفاهم معه، ويعقدون الاتفاقيات مع فلول المماليك، ويصبح كبيرهم "مراد" بك بمثابة موظف أو قائد قوة بوليسية تابعة للمحتل الفرنسي.. في نفس الوقت كان الصدام يتصاعد يوميًّا بين جيش الاحتلال أو السلطة الفرنسية وبين الأزهر، وانتهى ذلك الصراع بإغلاق الأزهر وتسمير أبوابه بعد مصرع كَليبر، وفي عهد خليفته الذي ادعى الإسلام: "عبد الله جاك مينو"!

نعم.. لقد فتح الأزهر أبوابه بعد ذلك؛ لأن الحملة الفرنسية انتهت أيامها في مصر، واضطرت إلى الجلاء، ولكن هذه الحادثة -أعني إغلاق الأزهر- عبرت عن طبيعة العلاقة الوحيدة الممكنة بين الاحتلال الغربي، وقيادة الأمة. كانت الحملة الفرنسية هي طليعة "الاستعمارية الغربية"، وكانت تجربة السنوات الثلاث التي قضتها في مصر كافية لإقناع هذه الاستعمارية بأنه ما لم تتم تصفية الدور القيادي الذي يلعبه "الأزهر".. فلن يمكن لأي استعمار غربي أن يستقر على ضفاف النيل.



•• لقد سقطت مصر خلال ساعات عندما كان أمراء المماليك يتولون الدفاع عنها، ودخل "نابليون" القاهرة سعيدًا مستبشرًا حالمًا بإمبراطورية "الإسكندر"، فلما برز "الأزهر" لأنه هو وحده الذي بقي في الساحة وتحمل شيوخه المنتشرون في كل قرية مصرية -بالوجود أو بالفكر أو بالتوقير- مسئولية قيادة مقاومة الأمة، لم يبِتْ جيش الاحتلال ليلة واحدة هادئة طوال ثلاث سنوات، ولم يسجل تاريخ الشعوب الشرقية، قبل مقاومة الشعب المصري، ولسنوات أخرى عديدة بعدها، مثل هذه المقاومة العامة والشاملة للوجود الغربي، التي شهدتها مصر في الفترة من **١٨٠١-١٧٩٨**.

كان رفض الوجود الغربي على أرضنا رفضًا عامًّا شاملًا وعنيفًا، وكان لا بد أن تُصفَّى قيادة الأزهر؛ لا عن طريق احتلاله بالخيل، ولا بتسمير أبوابه، بل بتسمير باب قيادته الفكرية للأمة؛ بتغريب المجتمع من حوله، حتى تُقطع جذوره أو تذوي، ويبدو نشازًا متخلفًا، بل ويصبح رمزًا "للتخلف"، ومثار السخرية والتندُّر.

هذه هي المهمة التي تولاها بنجاح رجل الغرب وممثل مصالحه "محمد على باشا"، الملقب "بالكبير"، مؤسس مصر "الحديثة" وباعث "نهضتها"، ومسلّمها فريسة عاجزة إلى الاستعمار الغربي).

ويقول الأستاذ كشك عقب انطلاق ثورة القاهرة الأولى ضد الاحتلال:

"لم يكن الأزهر الذي صب نابليون نيران الثورة الفرنسية عليه، يمثل فقط القيادة المباشرة لثورة أكتوبر ١٧٩٨.. بل كان قيادةَ الأمة كلها، تاريخيًا وواقعيًا ومستقبليًا. لذلك كان الحقد عليه والتركيز على سحقه مسجدًا وجامعة ومجاورين ومشايخ .. ونفوذًا..

"وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالي الظهر، واستمر إلى المساء، وأصدر بونابرت أمره إلى الجنرال بون بأن "يبيد كل من في الجامع"[1]. "فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وحرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين، كسوق الغورية والفحامين"[2].. "وتتابع الرمي من القلعة والكيمان، حتى تزعزعت الأركان، وهدمت في مرورها حيطان الدور، وسقطت في بعض القصور، ونزلت في البيوت والوكائل، وأصمَّت الآذان بصوتها الهائل".

"استمر ضرب البنادق الموجه للبطاريات الفرنسية من مآذن جامع السلطان حسن وقبته طوال العصر، ولما أقبل المساء وأحدثت القنابل فعلها أحدقت ثلاث أورط من المشاة و٣٠٠ فارس بالأزهر، وتقدم رجالها لا يعترض ضربهم وسيوفهم معترض، ودخلوا الجامع عنوة".

"وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهَّارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع، والأواني والقصاع، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه

---

(١) بونابرت عن المراسلات ج٥.

(٢) الجبرتي، ج٣.

وتغوَّطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عرُّوه، ومن ثيابه أخرجوه".



نعم ويل للمغلوب، وكان هذه هي أول مرة في التاريخ يُقتحم فيها الأزهر على هذا النحو، وتهدر كرامته بهذا الأسلوب البربري، الذي لا يشبهه إلا الاحتلال الصليبي لبيت المقدس في القرن الحادي عشر، ولا يفوقه إلا إحراق الاحتلال الصهيوني للمسجد الأقصى في القرن العشرين.

وفي كتاب "نقولا الترك" أن نابليون رفض الجلاء عن الأزهر، وأن هذا الاحتلال قد أحدث أثرًا فظيعًا في الجماهير المصرية وقياداتها (وما زال العامة في مصر حتى الآن يضربون المثل على أبشع ما يمكن أن يقع بقولهم "الخيل دخلت الأزهر").

كان الأزهر كما قلنا هو مركز قيادة وزعامة الأمة المصرية، ورمز عزتها وسيادتها، واقتحامه وإهانته على هذا النحو هو إهانة للأمة أو إعلان لهزيمتها على يد غازٍ بربري.. فهو ليس مجرد مسجد.. فالفرنسيون هدموا عدة مساجد وضربوا الأزهر من مسجد السلطان حسن، الذي احتلوه وركبوا المدافع في مآذنه.. ولا شك أن الاعتداء على حرمة المساجد أثار المصريين وأهان مشاعرهم، ولكن الأزهر أكبر من ذلك.. وباقتحامه على هذا النحو، سقط كل زيف حاول الغزاة أن يستروا أهدافهم خلفه.. وأصبحوا وجهًا لوجه ضد الأمة.. ضد الشعب المصري.. فمهما تكن خسائر ثورة القاهرة الأولى، فإن مكسبها الأعظم هو كشفها طبيعة الصراع المصيري بين الغزاة والأمة.

وقد سجل "نقولا الترك" أن "الشيخ محمد الجوهري" (وقد عرفنا مكانته وزعامته في الفصل الأول) دخل على نابليون قائلًا: "ما قابلت حاكمًا عادلًا كان أو ظالمًا، والآن قد أتيت متوسلًا إليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الأزهر. فقبل نابليون رجاءه وأمر بإخراج الجنود من الأزهر".

رحم الله الشيخ "الجوهري"، عرف أن كرامة الأمة وكرامة رموزها ومقدساتها.. فوق الكرامة لفردية. وعرف أن مصر قد احتلها الأجنبي وأصبحت مستعمرة، وأنه لم يعد بالإمكان -كما كان الحال- أن يترفع قادة الشعب عن زيارة الحاكم. وغفر الله للشامتين بنا الذين يعتبرون أن مصر تحررت في هذه الفترة بالذات وبدأت تمارس الحكم الوطني![٣]

وكانت نية نابليون متجهة إلى هدم الجامع الأزهر، فقد أصدر الجنرال برتييه رئيس أركان الحرب تعليمة (وهي صادرة بأمر القائد العام إلى الجنرال بون بتاريخ ٢٣ أكتوبر): "يهدم الجامع الأكبر ليلًا إذا أمكن، وترفع الحواجز والأبواب التي كانت تسد الشوارع"[٤].

ثم بدأت "العدالة" الثورية الفرنسية في الاقتصاص من "الثوار البلديين"! سواء في القاهرة أو في الأقاليم: "بعقوبات رهيبة، شرفتنا ورفعت قدرنا"[٥]. كما وصفها تتري فرنسي!

ومن أجل المزيد من التشريف ورفع القدر أصدر نابليون للجنرال برتييه: "تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة، بقطع رءوس جميع المسجونين الذين أُمسكوا وبيدهم سلاح. فليُؤخذوا إلى شاطئ النيل بعد هبوط الظلام، ولتُلقَ جثثهم المقطوعة الرءوس في النهر"[٦]. وفضلًا عن هؤلاء المسجونين، أُعدم في القلعة ثمانون عضوًا من "ديوان الدفاع" (الذي تزعم

---

(٣) الأستاذ جلال كشك يقصد مدرسة التغريبيين الذين يرون أن الاحتلال الفرنسي كان بداية تحرر مصر، وفي طليعتهم لويس عوض، الذي كان هذا الكتاب كله رداً عليه. [مجلة كلمة حق]

(٤) الرافعي، ج١.

(٥) بونابرت عن ٨٦ . Fertray P .

الثورة)، وهكذا نجد جهرًا بالعفو عن الأبرياء وإعدامًا للمعارضين في الخفاء، وتحت جنح الظلام، وهي سياسة خليقة بأن تحظى برضاء ميكافيللي"[٧].



واستمرت عملية "التشريف ورفع القدر"، فتم قطع رؤوس ستة من المشايخ الذين اتُّهموا بقيادة الثورة، والمؤرخون الذين يتشدقون بشكلية محاكمة "سليمان الحلبي" لا يكلفون أنفسهم عناء تبرير إعدام هؤلاء المشايخ بلا محاكمة معروفة ولا وقائع.. بل إعدام شيخ طائفة العميان بتهمة القيام بعمل مسلح ضد المدفعية الفرنسية. بل ولا يخجل إمام من أئمة المدرسة الاستعمارية مثل "هيرولد" من تبرير جريمة نابليون، بأن يخلع على هؤلاء المشايخ أوصافًا تحريضية مثل "لا جدال في أن هؤلاء الرجال كانوا أشد رجال الدين المسلمين تعصبًا وتهييجًا للجماهير"[٨].

---

(٦) بونابرت عن مراسلات الخامس ٧٩-٩٠.

(٧) هيرولد - بونابرت في مصر.

(٨) ن.م .

أوراق أفغانستانية..التاريخ السري للحرب

في حرب مع الحقيقة (١/٢)

"يقول المسؤولون الأمريكيون باستمرار إنهم يحرزون تقدماً.. إنهم لم يفعلوا، وهم يعلمون ذلك!"

تحقيق حصري لصحيفة واشنطن بوست

ترجمه لمجلة كلمة حق: حامد عبد العظيم

كشفت مجموعة سرية من الوثائق الحكومية التي حصلت عليها الواشنطن بوست، أن كبار المسؤولين الأمريكيين فشلوا في قول الحقيقة حول الحرب في أفغانستان طوال فترة الحملة التي استمرت ١٨ عامًا، إذ أصدروا تصريحات وردية يعلمون أنها كاذبة وأخفوا أدلة لا لبس فيها على أن الحرب أصبحت غير قابلة للفوز بها.

(١) كاتب الاستقصاء هو الصحفي بواشنطن بوست: كريج ويتلوك. والاستقصاء منشور بتاريخ ٢٠١٩/١٢/٩ رابط الاستقصاء .



أُنشئت الوثائق من خلال مشروع فيدرالي يدرس الإخفاقات الجذرية لأطول نزاع مسلح في تاريخ الولايات المتحدة. وتشمل أكثر من ٢٠٠٠ صفحة من الملاحظات غير المنشورة سابقًا، والمقابلات مع أشخاص لعبوا دورًا مباشرًا في الحرب، من الجنرالات والدبلوماسيين، إلى عمال الإغاثة والمسؤولين الأفغان.

"حاولت الحكومة الأمريكية حماية هويات الغالبية العظمى من الذين عُقدت معهم المقابلات من أجل المشروع وإخفاء كل ملاحظاتهم تقريبًا. فازت صحيفة واشنطن بوست بالوثائق الصادرة بموجب قانون حرية المعلومات بعد معركة قانونية استمرت ثلاث سنوات."

في المقابلات، قدّم أكثر من ٤٠٠ مُطّلع نقدًا غير محدود لما حدث في أفغانستان، وكيف أصبحت الولايات المتحدة غارقة في وحل الحرب التي استمرت عقدين تقريبًا. ومع البلادة وندرة التعبير عنها علنًا، تكشف المقابلات الشكاوي والإحباطات والاعترافات المكبوتة، إلى جانب سوء الظن والغِيبة.

"لم يكن لدينا الفهم الأساسي لأفغانستان، لم نكن نعرف ماذا كنا نفعل".

قال ذلك دوجلاس لوت، وهو جنرال في الجيش من فئة ثلاث نجوم، والذي كان بمثابة القائد التابع للبيت الأبيض في حرب أفغانستان أثناء إدارتي بوش وأوباما، وقد صرح بذلك خلال مقابلات مع الحكومة عام ٢٠١٥. وأضاف: "ما الذي نحاول القيام به هنا؟ لم يكن لدينا الفكرة الأكثر ضبابية حول ما كنا نتعهد به".

"لو يعرف الشعب الأمريكي حجم الخلل الوظيفي! ٢٤٠٠ شخص فُقدوا!". قال لوت ذلك وهو يلقي بالمسؤولية على بيروقراطية الكونجرس والبنتاجون ووزارة الخارجية في مقتل الأفراد العسكريين الأمريكيين، وقال: "مَن سيصرح بأن هذا كان عبثاً؟".



منذ عام ٢٠٠١، انتشر أكثر من ٧٧٥،٠٠٠ جندي أمريكي في أفغانستان، كثيراً منهم نُشروا مراراً وتكراراً. من بين هؤلاء قُتل ٢٣٠٠، وأُصيب ٢٠٥٨٦، استناداً إلى إحصاء وزارة الدفاع.

هذه المقابلات التي شملت نطاقاً واسعاً من المشاركين، تظهر إلى حد كبير أوجه الضعف الأساسية في الحرب التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا. لقد أكد المشاركون كيف أن ثلاثة رؤساء - جورج دبليو بوش وباراك أوباما ودونالد ترامب وقادتهم العسكريين لم يتمكنوا من الوفاء بوعودهم بأن ينتصروا في أفغانستان.

بعد أن تحدث معظمهم على افتراض أن تصريحاتهم لن تصبح علنية، أقر المسؤولون الأمريكيون بأن استراتيجياتهم القتالية كانت قاتلة، وأن واشنطن أهدرت مبالغ هائلة من المال في محاولة لإعادة تشكيل أفغانستان كدولة حديثة.

تسلط المقابلات الضوء أيضًا على محاولات الحكومة الأمريكية الفاشلة للحد من الفساد الجامح، وبناء جيش أفغاني وقوة شرطة مختصة، ووضع حد لتجارة الأفيون المزدهرة في أفغانستان.

لم تقدم حكومة الولايات المتحدة بيانًا شاملاً حول ما أنفقته على الحرب في أفغانستان، لكن التكاليف باهظة. منذ عام ٢٠٠١، أنفقت وزارة الدفاع ووزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية أو خصصت ما بين **٩٣٤** مليار دولار و **٩٧٨** مليار دولار، وفقًا لتقدير معدل التضخم التي قامت به (نيتا كراوفورد)، أستاذ العلوم السياسية ومدير مشروع تكاليف الحرب في جامعة براون.

لا تشمل هــذه الأرقام الأمـوال التــي تنفقها وكالات أخرى، مثل وكالة الاستخبارات، وإدارة شؤون المحاربين القدامى، المسؤولة عن الرعاية الطبية لقدامى المحاربين الجرحى.

"ماذا جنينا من وراء هذه التريليون دولار؟ هل كان الأمر يستحق تريليون دولار؟".

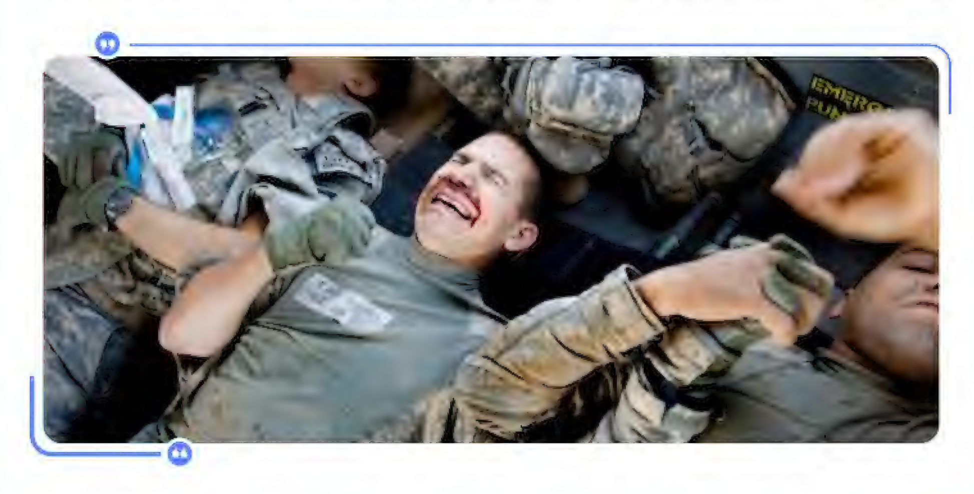
قال ذلك جيفري إيجرز في المقابلات التي عقدتها الحكومة، وهو متقاعد من قوات البحرية وعمل بالبيت الأبيض خلال حقبة بوش وأوباما. وأضاف: "بعد مقتل أسامة بن لادن، قلت إن أسامة ربما كان يضحك في قبره المائي بالنظر إلى ما أنفقناه على أفغانستان".

تتناقض الوثائق أيضًا مع سلسلة طويلة من التصريحات العلنية الصادرة عن رؤساء الولايات المتحدة والقادة العسكريين والدبلوماسيين، الذين أكدوا للأميركيين عاماً بعد عام أنهم يحرزون تقدماً في أفغانستان وأن الحرب تستحق القتال.

[رابط فيديو وثائقي مرفق مع الاستقصاء:اضغط هنا، من إعداد (جويسي لي) للواشنطن بوست]

وصف العديد من الذين جرت مقابلتهم الجهود الواضحة والمستمرة التي بذلتها الحكومة الأمريكية لتضليل الجمهور عمداً. وقالوا إنه من الشائع في

المقر العسكري في كابول وفي البيت الأبيض تشويه الإحصائيات لجعل الأمر يبدو وكأن الولايات المتحدة تنتصر في الحرب، في حين أن الأمر لم يكن كذلك. "قُلبت كل البيانات لتقديم أفضل صورة ممكنة". قال ذلك بوب كراولي في هذه المقابلات مع الحكومة، وهو عقيد في الجيش عمل في مكافحة التمرد كمستشار كبير للقادة العسكريين الأمريكيين عامي ٢٠١٣ و٢٠١٤: "الدراسات الاستقصائية، على سبيل المثال، كانت غير موثوق بها تماماً ولكنها عززت أن كل شيء كنا نفعله كان صحيحًا، فأصبح كل هدفنا الحفاظ على صورتنا".



واعترف جون سوبكو رئيس الوكالة الفيدرالية التي أجرت المقابلات للواشنطن بوست أن الوثائق تُظهر أن "الشعب الأمريكي قد كُذب عليه باستمرار".

المقابلات هي منتج جانبي لمشروع تقوده وكالة سوبكو، مكتب المفتش العام لإعادة إعمار أفغانستان، المعروف باسم SIGAR ، أنشئت الوكالة من قبل الكونجرس عام ٢٠٠٨ للتحقيق في الهدر والاحتيال في منطقة الحرب.

في عام ٢٠١٤، بتوجيه من سوبكو، ابتعدت SIGAR عن مهمتها المعتادة المتمثلة في إجراء عمليات التدقيق، وأطلقت مشروعًا جانبيًا بعنوان "الدروس المستفادة"، المشروع ذو الـ 11 مليون دولار يهدف إلى تشخيص إخفاقات

السياسة في أفغانستان، ويضمن عدم تكرار الولايات المتحدة لنفس الأخطاء في المرة التالية التي تغزو فيها بلدًا أو تحاول فيها إعادة بناء بلد محطم.

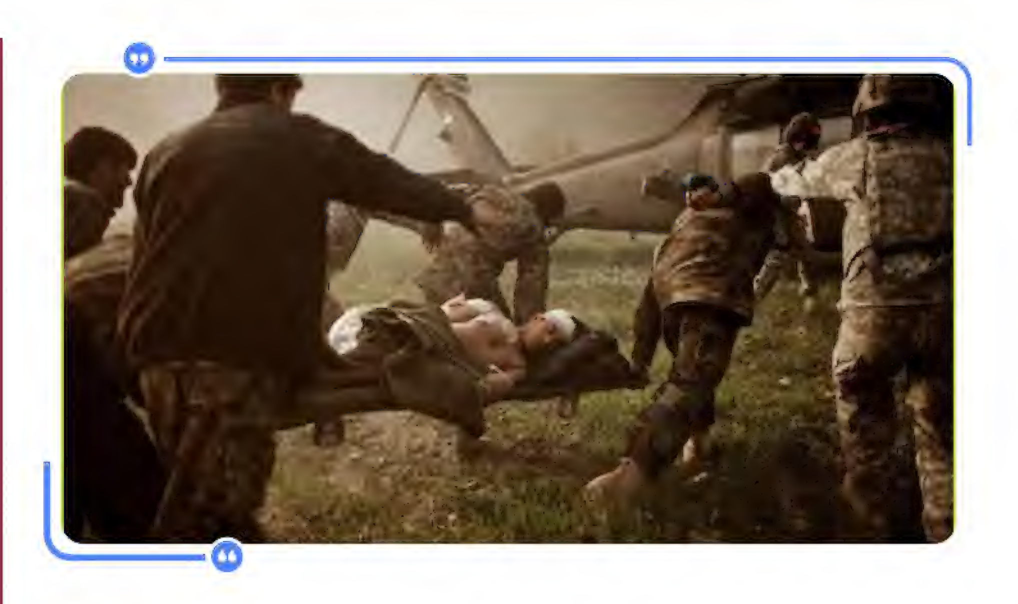
أجرى فريق "الدروس المستفادة" مقابلات مع أكثر من ٦٠٠ شخص من ذوي الخبرة المباشرة في الحرب. وكان معظمهم من الأمريكيين، لكن محللي SIGAR سافروا أيضًا إلى لندن وبروكسل وبرلين لمقابلة حلفاء الناتو. بالإضافة إلى ذلك، قابلوا نحو ٢٠ مسؤولًا أفغانيًا، وناقشوا برامج إعادة الإعمار والتنمية.

بالاعتماد جزئيًا على المقابلات، بالإضافة إلى السجلات والإحصاءات الحكومية الأخرى، نشرت SIGAR سبعة تقارير للدروس المستفادة منذ عام ٢٠١٦، تُبرز المشاكل في أفغانستان وتوصي بإجراء تغييرات لتحقيق الاستقرار في البلاد.

لكن التقارير، التي كُتبت بطريقة بيروقراطية بلهاء، وركزت بطريقة مشوشة على المبادرات الحكومية، تركت أقسى الانتقادات وأشد المقابلات جرأة.

"لقد وجدنا أن استراتيجية الاستقرار والبرامج المستخدمة لتحقيقها، لم تكن مصمَمة بما يناسب السياق الأفغاني، ونادراً ما استمرت النجاحات في تحقيق الاستقرار في المناطق الأفغانية لفترة أطول من الوجود المادي لقوات التحالف والمدنيين". اقرأ مقدمة أحد التقارير الصادرة في مايو ٢٠١٨.

حذفت التقارير أيضًا أسماء أكثر من ٩٠ بالمائة من الأشخاص الذين عُقدت المقابلات معهم خلال المشروع. في حين وافق عدد قليل من المسؤولين على تسجيل حديثهم مع SIGAR ، قالت الوكالة إنها وعدت بعدم الكشف عن هوية أي شخص قابلته، لتجنب الخلاف حول المسائل الحساسة سياسياً.



بموجب قانون حرية المعلومات، بدأت واشنطن بوست في البحث عن سجلات مقابلات "الدروس المستفادة" في أغسطس/ آب ٢٠١٦. ورفضت SIGAR، بحجة أن الوثائق محصنة وأن الجمهور ليس له الحق في رؤيتها. فكان على واشنطن بوست مقاضاة SIGAR في المحكمة الفدرالية - مرتين لإجبارها على إصدار الوثائق.

كشفت الوكالة في النهاية عن أكثر من ٢٠٠٠ صفحة من الملاحظات والنصوص غير المنشورة من ٤٢٨ من المقابلات، وكذلك العديد من التسجيلات الصوتية. تحدد الوثائق ٦٢ من الأشخاص الذين جرت المقابلات معهم، لكن SIGAR حجبت أسماء ٣٦٦ آخرين. في المذكرات القانونية، زعمت الوكالة أنه ينبغي عدّ هؤلاء الأفراد بمثابة مخبرين ورواة، قد يواجهون الإهانة أو المضايقة أو الانتقام أو الأذى الجسدي، إذا أصبحت أسمائهم علنية.

"من خلال تواريخ الوثائق وتفاصيل أخرى منها، حددت واشنطن بوست ٣٣ شخصًا آخر جرت المقابلات معهم، بمن فيهم العديد من السفراء السابقين والجنرالات ومسؤولي البيت الأبيض."

طلبت الصحيفة من قاضٍ فيدرالي إجبار SIGAR على الكشف عن أسماء أي شخص آخر جرت مقابلته، بحجة أن الجمهور لديه الحق في معرفة المسؤولين الذين انتقدوا الحرب وأكدوا أن الحكومة قد ضللت الشعب الأمريكي. جادلت الصحيفة أيضًا بأن المسؤولين لم يكونوا من المخبرين أو الوراة، لأنهم لم يُقابَلوا كجزء من التحقيق.

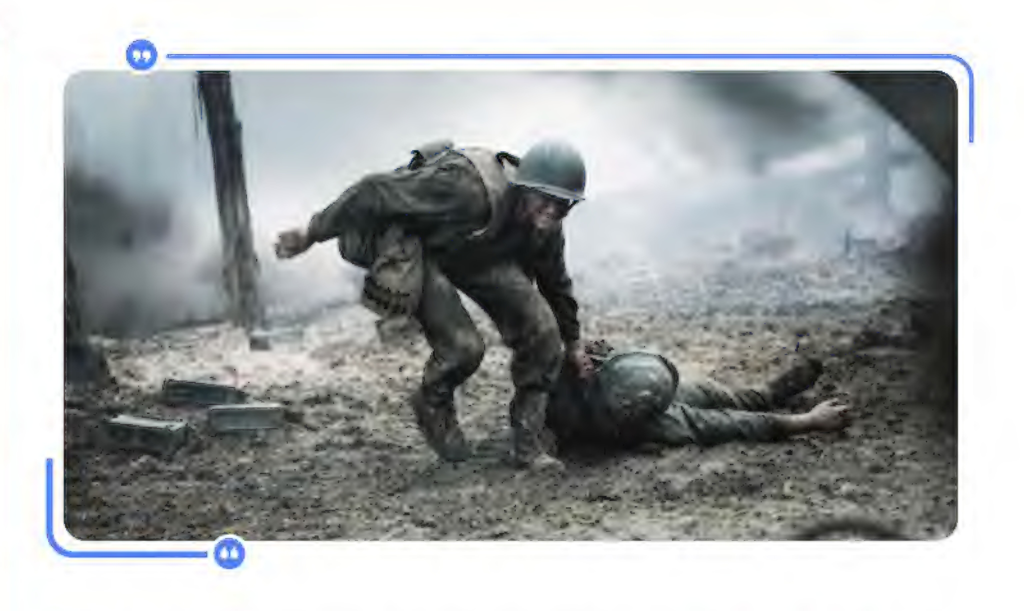
قرار القاضي آمي بيرمان جاكسون من محكمة مقاطعة U.S في واشنطن كان معلقًا منذ أواخر سبتمبر. تنشر صحيفة واشنطن بوست الوثائق الآن، بدلاً من انتظار صدور حكم نهائي، لإطلاع الجمهور عليها أثناء مفاوضات إدارة ترامب مع طالبان، وللنظر ما إذا كانت ستنسحب القوات الأمريكية الباقية في أفغانستان والبالغ عددها ١٣٠٠٠ جندي.

حاولت الواشنطن بوست الاتصال لأخذ تعليق كل شخص تمكنت من التعرف عليه ممن أجروا مقابلات مع SIGAR. (ردودهم مجموعة في مقال منفصل).

قال سوبكو، المفتش العام، لصحيفة الواشنطن بوست إنه لم يُخفِ الانتقادات العنيفة والشكوك حول الحرب، التي أثارها المسؤولون في مقابلات "الدروس المستفادة". وقال إن الأمر استغرق من مكتبه ثلاث سنوات لإصدار السجلات؛ لأن لديه عدداً قليلاً من الموظفين، ولأن الوكالات الفيدرالية الأخرى اضطرت إلى مراجعة المستندات لمنع الكشف عن أسرار الحكومة.

قال: "لم نحظرها، نحن نؤمن بشدة بالانفتاح والشفافية، لكن يتعين علينا اتباع القانون، أفكر في أي مفتش عام، من المحتمل أنني كنت الأكثر إطلاعاً على المعلومات".

سجلات المقابلات أولية وغير محررة ، ولم يدمجها موظفو SIGAR للدروس المستفادة في سرد موحد؛ لكنها مليئة بأحكام صارمة من أشخاص صاغوا أو نفذوا السياسة الأمريكية في أفغانستان.



قال جيمس دوبينز، وهو دبلوماسي أمريكي رفيع سابق، خدم كمبعوث خاص إلى أفغانستان في عهد بوش وأوباما: "إننا لا نغزو البلدان الفقيرة لجعلها غنية، أو البلدان الاستبدادية لجعلها ديمقراطية، بل نغزو الدول العنيفة لجعلها سلمية، وفشلنا بوضوح في أفغانستان".

ولتعزيز مقابلات "الدروس المستفادة"، حصلت الواشنطن بوست على مئات الصفحات من المذكرات المصنفة مسبقًا حول الحرب الأفغانية، التي أملاها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بين عامي ٢٠٠١ و ٢٠٠٦. المذكرات التي أطلق عليها رامسفيلد وموظفوه "رقاقات الثلج"، هي تعليمات أو تعليقات موجزة قام رئيس البنتاجون بإملائها على بعض موظفيه، غالبًا عدة مرات في اليوم.

أخرج رامسفيلد للعلن عددًا مختارًا من رقاقاته الثلجية عام ٢٠١١، ونشرها عبر الإنترنت بالتزامن مع مذكراته "المعروف والمجهول". لكن معظم مجموعته التي تحتوي على رقاقات الثلج - والتي تقدر بنحو ٥٩٠٠٠ صفحة ظلت سرية.

في عـام ٢٠١٧، واستجابة لدعوى قانون حرية المعلومات المرفوعة من قبل أرشيف الأمن القومي، وهو معهد أبحاث غير ربحي مقره جامعة جورج واشنطن، بدأت وزارة الدفاع في مراجعة وإصدار ما تبقى من رقاقات رامسفيلد الثلجية على نحو مستمر، وشاركهم الأرشيف مع الواشنطن بوست.

تشكل مقابلات SIGAR ومذكرات رامسفيلد المتعلقة بأفغانستان تاريخًا سريًا للحرب، وتقييمًا لا يوصف لمدة ١٨ عامًا من الصراع. وبأسلوب رامسفيلد الفظ تنبأت العديد من رقاقات الثلج بالمشاكل التي لا تزال تلاحق الجيش الأمريكي بعد أكثر من عقد من الزمان.

"قد أكون غير صبور، الحقيقة أنا أعلم أني غير صبور بعض الشيء".

كتب رامسفيلد في إحدى المذكرات إلى عدد من الجنرالات وكبار المساعدين.
"لن نُخرج أبداً الجيش الأمريكي من أفغانستان، ما لم نرَ ما يحقق الاستقرار، والذي سيكون ضرورياً لنا لنغادر البلاد".

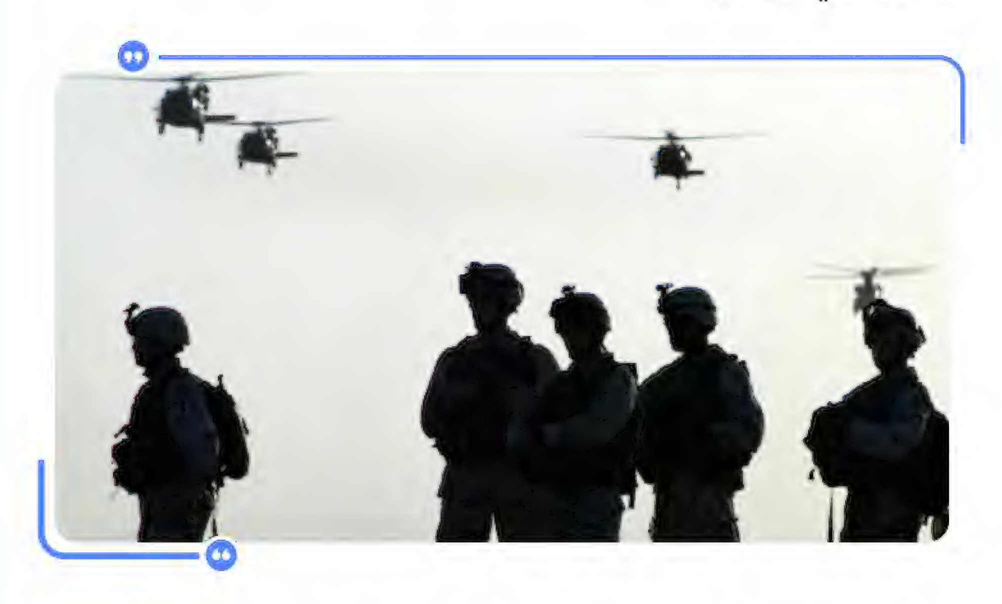
"المساعدة!". كتب ذلك رامسفلد. المذكرة بتاريخ ٢٠٠٢/٤/١٧ بعد ستة أشهر من بدء الحرب.

ماذا يقولون في العلن

"لقد كان تاريخ النزاع العسكري في أفغانستان واحداً من النجاحات الأولية، تبعته سنوات طويلة من التعثر وأقصى درجات الفشل، لن نكرر هذا الخطأ".
الرئيس جورج دبليو بوش، في خطاب ألقاه في معهد فرجينيا العسكري

من خلال وصفها الصريح لكيفية تعثر الولايات المتحدة في حرب بعيدة، بالإضافة إلى تصميم الحكومة على إخفائها عن الجمهور، تشبه مقابلات "الدروس المستفادة" على نطاق واسع "أوراق البنتاجون"، وهو

التاريخ السري للغاية لوزارة الدفاع عن حرب فيتنام. عندما سُربت عام ١٩٧١، تسببت أوراق البنتاجون في ضجة كبيرة من خلال الكشف عن أن الحكومة قد ضللت الجمهور منذ فترة طويلة حول كيفية تورط الولايات المتحدة في فيتنام.



في ٤٧ مجلداً، استندت الدراسة المكونة من ٧٠٠٠ صفحة بالكامل على الوثائق الحكومية الداخلية، والكابلات الدبلوماسية، ومذكرات صناع القرار، وتقارير المخابرات. وللحفاظ على السرية، أصدر وزير الدفاع روبرت ماكنمارا أمرًا يمنع المؤلفين من مقابلة أي شخص.

لم يواجه مشروع "الدروس المستفادة" لـ SIGAR أي قيود من هذا القبيل، لقد أجرى الموظفون المقابلات بين عامي ٢٠١٤ و ٢٠١٨ ، معظمها مع مسؤولين خدموا خلال حقبة بوش وأوباما. نحو ٣٠ من سجلات المقابلات نُسخت كلمة بكلمة. والباقي عبارة عن ملخصات مكتوبة للمحادثات: صفحات من الملاحظات والاقتباسات من أشخاص لديهم وجهات نظر مختلفة عن الصراع، من القواعد العسكرية الأمامية البعيدة في أفغانستان إلى أعلى دوائر السلطة.

بعض المقابلات قصيرة لسبب غير مفهوم، فيتكون سجل المقابلة مع جون ألين، قائد المارينز الذي قاد قوات الولايات المتحدة وحلف الناتو في أفغانستان من عام ٢٠١١ إلى عام ٢٠١٣، من خمس فقرات. في المقابل، سجلات المقابلات مع شخصيات مؤثرة أخرى أكثر شمولاً، فقد عقد السفير الأمريكي السابق ريان كروكر مقابلتين أسفرتا عن **٩٥** صفحة مكتوبة.

على عكس "أوراق البنتاجون"، لم تُصنف أي من وثائق "الدروس المستفادة" في الأصل على أنها سر حكومي، لكن بمجرد ضغط الواشنطن بوست لجعلها علنية، وبعد نشر الحقيقة، تدخلت وكالات اتحادية وحظرت بعض المواد.

على سبيل المثال، أكدت وزارة الخارجية أن نشر أجزاء من مقابلات معينة يمكن أن يعرض المفاوضات مع طالبان لإنهاء الحرب للخطر. كما حظرت وزارة الدفاع وإدارة مكافحة المخدرات نشر بعض اقتباسات المقابلات.

تحتوي "الدروس المستفادة" على قليل من المفاجآت التي تخص العمليات العسكرية، والتي تفجر سيولاً من الانتقادات التي تدحض الرواية الرسمية للحرب، منذ الأيام الأولى وحتى بداية إدارة ترامب.

في البداية، على سبيل المثال، كان للغزو الأمريكي لأفغانستان هدف واضح ومعلن، وهو الانتقام من القاعدة ومنع تكرار هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ولكن تُظهر المقابلات أنه مع استمرار الحرب، استمرت الأهداف والمهمة في التغير، وترسخ انعدام الثقة في الاستراتيجية الأمريكية داخل البنتاجون والبيت الأبيض ووزارة الخارجية. وبقيت الخلافات الأساسية دون حل، فقد أراد بعض المسؤولين الأمريكيين استخدام الحرب لتحويل أفغانستان إلى دولة ديمقراطية، وأراد آخرون تغيير الثقافة الأفغانية وتمكين المرأة، بينما أراد فريق ثالث إعادة تشكيل ميزان القوى الإقليمي بين باكستان والهند وإيران وروسيا.

"مع إستراتيجية AfPak ، كانت هناك هدية تحت شجرة عيد الميلاد للجميع".

أخبر مسؤول أمريكي لم تُحدد هويته بذلك الجهات التي أجرت المقابلات عام ٢٠١٥.

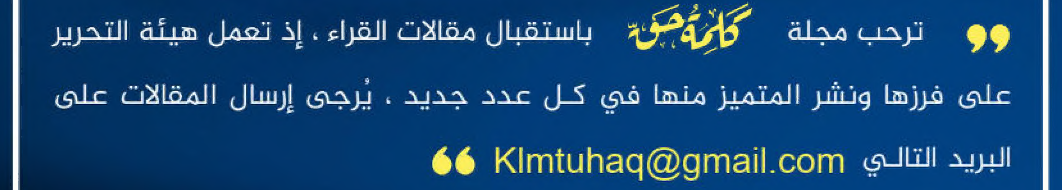
"مع الوقت، كنتَ منتهياً، كان لديك العديد من الأولويات والتطلعات، كان يبدو أنه لا توجد أي استراتيجية على الإطلاق".

تكشف مقابلات "الدروس المستفادة" أيضًا كيف عانى القادة العسكريون الأمريكيون لمعرفة مَن كانوا يقاتلون، ناهيك عن السبب. هل كانت القاعدة العدو أم طالبان؟ هل كانت باكستان صديقة أم عدوة؟ ماذا عن الدولة الإسلامية والمجموعة المحيرة من الجهاديين الأجانب، ناهيك عن أمراء الحرب الذين هم على كشوف رواتب السي آي إيه؟ وفقًا للوثائق لم تستقر الحكومة الأمريكية أبدًا على إجابة. نتيجة لذلك، وفي الميدان، لم تتمكن القوات الأمريكية في كثير من الأحيان من معرفة العدو من الصديق.

"لقد ظنوا أنني ذاهب إليهم بخريطة لأريهم أين يعيش الطيبون وأين يعيش الأشرار"، هذا ما قاله مستشار سابق لفريق القوات الخاصة بالجيش لم تُسمِه لمقابلات مع الحكومة عام ٢٠١٧. وأضاف: "لقد استغرق الأمر عدة محادثات معهم ليفهموا أنني ليس لدي هذه المعلومات، في البداية ظلوا يسألون: لكن من هم الأشرار، أين هم؟".

المنظر لم يكن أكثر وضوحًا من البنتاجون: "ليس لدي أي رؤية حول من هم الأشرار" رامسفيلد مشتكياً في ٨ سبتمبر ٢٠٠٣، مضيفاً: "نحن نعاني من نقص شديد في الذكاء البشري".

[بقية الترجمة العدد القادم من مجلة لكمة حق، إن شاء الله]



ترحب مجلة كلمة حق باستقبال مقالات القراء ، إذ تعمل هيئة التحرير على فرزها ونشر المتميز منها في كـل عدد جديد ، يُرجى إرسال المقالات على البريد التالـي Klmtuhaq@gmail.com

شروط المقال

(١) ألا يكون عاطفيا يخاطب الشعور بل عقلانيا وما أجمل لو يكون خلاصة علمية.

(٢) أن يكون في باب الثورة والمقاومة والكفاح، فذلك واجب الوقت.

(٣) أن يكون عمليًا مفيدا وأحسن ما يكون لو قدم إجابة على سؤال كيف نفعل كذا، أو في الموقف الفلاني ماذا ينبغي أن نفعل، وهو مجال واسع، يكتب فيه السياسي والاقتصادي والقانوني والإعلامي والشرعي الثورات الأمة بحاجة لخبرات في كل هذه المجالات

(٤) أن يكون مكتوبًا باسم صاحبه، لا باسم مجهول ولا بكنية، فلئن كان ثمة ما قد يعرقل نشر الاسم الظروف خاصة ، فيمكن للمجلة أن تحتفظ بالاسم دون نشره لرغبة صاحبه.



klmtuhaq



السنة الثالثة العدد ٣٠ يناير ٢٠٢٠

المشرف العام
محمد إلهامي

مديـــر التحـــرير
حامد عبدالعظيم